التربية بقراءة النصوص

٤- قصة قارون

تقديم

أناهيد بنت عيد السميري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّوجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الأول

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله -عز وجل- حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أهل القرآن، أهله وخاصته الذين جعلوا حياتهم صورة لهذا الكتاب العزيز فسلكوا مسلكه؛ ومسلكه في الحقيقة عزيز يحتاج إلى جهد، والحق كما يقول علي -رضي الله عنه-: "الحقُّ لا يأتي إلا بالجهد" فالمطلوب منا إذا صدقنا في إرادة كون هذا الكتاب ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا، وقائدنا إلى ربنا أن نجتهد في فهمه وبيان معانيه وسبْر أغواره، ولا يبذل الجهد إلا من عرف ما وراء هذا الجهد من أجر عظيم، ومن متعة يذوقها في الدنيا قبل الآخرة.

مقدمة

من المفاهيم المهمة جدًا قبل أن ندخل في الكلام حول التربية بالنصوص، وقبل أن نتكلم عن "وقفات تربوية مع قصة قارون"، أن نؤكد ما يسمى بـ"الجوع المعرفي الفطري".

هذه مسألة غاية في الأهمية يجب أن نتفق جميعًا عليها، وكما نغذي أبناءنا -لأني سأتكلم عن النظر لهذه ولغيرها من النصوص على أساس أنها مصدر للتربية- نغذي أبدانهم، طعامًا وشرابًا، خلق الله لهم أرواحهم وهي أقدس من أبدانهم، أطهر من أبدانهم، وخلق لها حاجات

-خلق لهم أرواحهم التي فيها الفطرة السوية، وخلق لهذه الفطرة السوية حاجات-

حتى نقرب المسألة سنقول: كما أن البدن يجوع منذ الطفولة ويعبر عن جوعه من أجل أن يُغذى، كذلك أرواحنا وأرواح هؤلاء الذين نربيهم فيها جوع فطري إلى معرفة الحق، إن تركناهم جائعين ولم نشبعهم نحن سيشبعهم غيرنا! وممكن يكون غيرنا هو الشيطان الرجيم، يوسوس لهم؛ يجيب عن أسئلتهم؛ يقتنعون بإجاباته فيضلوا، وممكن يكون غيرنا ليس وسواس الجن إنما وسواس شياطين الإنس، فيسألون فيجيبونهم فينحرفوا.

فالشاهد الذي نريد أن نتفق عليه: أننا كلنا نشترك بما يسمى بـ"الجوع المعرفي الفطري" الفطرة التي خلقها الله في نفوسنا لها صفات معينة، هذه الصفات فيها أسئلة مُلحّة: مَن خلق؟ مَن فعل؟ مَن سندي؟ مَن القريب؟ على مَن أعتمد؟ ماذا أريد؟ إلى أين أريد أن أذهب؟ ما هو الطريق الصحيح؟ كيف أتخذ القرار الصحيح؟ كل هذه الأسئلة التي تحوم في عقول الكبار تدور في عقول الصغار.

في البداية تكون الإجابات عندهم دائمًا تعتمد على غيرهم، ثم حين يفتحون عيونهم جيدًا فيجدون أنّ كبيرهم هذا ذهب وهو الذي اعتمدوا عليه في الهداية والبعد عن الضلالة، الذي يشفيهم في إجاباته فتبيّن أن إجاباته ليست صحيحة، فتأتي كارثة معرفية، فقدان الثقة

في الأهل، فقدان الثقة في الوالدين، فقدان الثقة في المجتمع، يأتي رفض الموروث! يأتي رفض ما في الكتاب والسنة من علم! لماذا؟ لأن الوالدين ما كانا أهلاً لإشباع هذا الجوع العظيم الذي في نفس الطفل.

ولذلك تلاحظون أن أكثر الأطفال -إلا القلة التي عندها لكنها لطبعها لا تُعبّر- كثيرو السؤال، كثيرو السؤال مثل كثيرو طلب الطعام بالضبط، بمعنى أنهم جائعون للمعرفة، جائعون للهداية، يريدون الطريق المستقيم، فجعل الله في فطرهم الحاجة للعلم، المفترض الذي يربيهم يكون معه علم، لا أن يأتي الطفل الصغير يقول لك: "من أين أتيت؟" فتأتي الإجابات ما يقبلها عقل! إما يجيبون: "نحن أتينا بك من البقالة! وجدناك عند الباب!" أو يتجاهلون الطفل.

كل هذا نسيان أن مسؤولية الآباء إطعامهم الهداية كما أن مسؤوليتهم إطعامهم الطعام، جائعون يريدون أحدًا أن يجيب عليهم ويريدون أحدًا أن يُنمذِج لهم ويأتي لهم ببيان وتوضيح، جائعون محتاجون جرعات من العلم تشبعهم ويتذوقون حلاوته، ليس فقط تشبعهم أي لا تكون مادة أساسية بل حتى يحلّون، فهذا كله لابد أن يكون في فكر الوالدين، حين يأخذون المعرفة يطبخونها طبخة سهلة، من أجل أن يطعموها الأبناء، ولكم أن تتخيلوا أن هذا الشيء اسمًا ومسمى، بمعنى مثلما نطعم الصغير طعامًا لينا وهو صغير ونطبخ له الأشياء ونسلقها وإلى آخر كل الذي تعرفونه، هذه المعلومات ماذا

سنفعل بها؟ هي نفسها لكنها ستكون ليّنة سهلة بسيطة، لن يأخذ جرعة كبيرة لكن سيأخذ جرعة، هذا إن كنا نتكلم عن الطفولة، لكن لو بدأنا نتكلم عن تسع سنوات، أكيد تسع سنوات ماذا سيفعل هذا الآكل؟ سيأكل تفاحته كاملة ويأكل أكله كاملًا، فلك أن تتصوري كيف من جهة المعرفة يجب أن يتغذى تغذية كاملة.

الشاهد الآن: صغيرنا هذا جائع ووالديه مطلوب منهم إطعامه، سيطعمونه المعرفة العلم، وفضل الله علينا أنّ عندنا مصدرًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أبدًا، فالثقة كلها في هذا المصدر فيما نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من كلام الله، وفيما تكلم به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

كنا في الدورة الماضية نناقش شيئًا من سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وسميناها كما نسمي هذه الدورة "التربية بقراءة النصوص" يعني كيف تقرأ النص قراءة صحيحة وتخرج منه بقواعد تربي بها أبناءك، هذه المرة سنبدأ في دورتنا بأخذ شيء من كتاب الله على ما يتيسر فنقف عند أشياء معروفة ونخرج منها بقواعد تربوية، يعني مقصدنا الآن: أن نستغني في تربيتنا عن كل نظرية أتت بعيدًا عن كتاب الله أو أتى بها أحد من كتاب الله لكن بعدما تلوث عقله! المشكلة أن عندنا مصيبتين:

١- أن يأتي أحد بأكلة جاهزة لأبدان غير أبداننا فنُسمٌّ لو أكلناها يأتي لك بأفكار في التربية من عند الشرق والغرب، كما هي، يقول فلان وعلان قالوها من تفكيرهم.

هذا واضح على الأقل من غلاف الطعام فهمت إنه ما يناسبك.

٢- أسوأ منه أن يأتي أحد يأخذ طبخة غيرنا وأكل غيرنا ويطبخه في مطابخنا! ويقول لك فكرة تأتي من الشرق أو الغرب ثم يستدل عليها بآية من القرآن.

تصير لا تعرف هل هذا الكلام أتى صافيًا من مصدره أم أتى من فكرة واستدل عليها.

وهذا الأسلوب غالًبا أصحابه لا يقصدون الباطل إنما من كثرة انتشار هذه الأفكار ظنوا أنها حق فاستشهدوا لها بالقرآن.

فيما يُنشر كتاب اسمه "السر" وهو كفر محض بالله وبالإيمان بالقضاء والقدر وكيف أن الإنسان يستطيع أن يجذب لنفسه أقداره!

مصيبة هذه! ثم يُكتب عنه في مكاتبنا: "الأكثر مبيعًا!" هذه مصيبة انتهت لكن المشكلة أن الذي قرأها جاء يقول: "هذا بالضبط الذي قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- عن التفاؤل!" إن كنتَ تدري فتلك مصيبة، وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظم!

إذا كنت تعرف أن هذا ليس كلامنا ولا ديننا، على الأقل أهون، لكن تأتي تقول إنك تستطيع أن تجذب لنفسك الأقدار وهذا هو التفاؤل الذي أمر به النبي -صلى الله عليه وسلم-! تصبح مصيبتين على رأسنا، وهذا الذي يحصل في أشياء كثيرة، الغالب أنهم يكونون لا يقصدون لكن ماذا يحصل؟ القراءة السطحية، لا نفهم ماذا يقول وما الذي بين سطور الكاتب فنأخذ من هذا فكرُه ومن هذا فكرُه ونقبل الفكر من أي مجهول!

ماذا نريد أن نفعل؟

نُصفّي مصدرنا تمامًا، لا يمينًا ولا شمالًا ولا فهمًا إلا فهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الكرام، أي لا تكون هناك فكرة سابقة أبحث لها عن دليل، هذه هي الطريقة الخاطئة: أنا قادم بفكرة ثم أبحث عن دليل في القرآن والسنة، هذا باطل، يعني يعتقد ثم يستدل. لا، خطأ معناه سأعتقد أي اعتقاد وأبحث عن أي كلمة في القرآن أو في السنة تشبه اعتقادي وأقول: "ربنا أراد كذا".

مثلا: الجماعة الذين يروّجون للطاقة هم يظنون الطاقة شيئًا عادي مجرد طاقة، وليسوا متصورين بُعد هذا الكلام، الطاقة معناها في بُعدها البعيد الذي لا تفهمه: إله يُعبد من دون الله! هذه نهايتها، لكن من قريب الإنسان ما يشعر، يشعر أنه كلام فيه الاستفادة من أفكار غيرنا. ليس هذا المكان الذي نناقش فيه مسألة الطاقة، يوجد من

يتكلم ومتخصص ويفهم هذا الكلام جيدًا، ويعرف كيف يرد على مُدّعي الطاقة.

لكن المشكلة عندما يأتي أحد يقول لك: "وحتى النبي -صلى الله عليه وسلم-طلب الطاقة! وقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وفي بَصَرِي نُورًا، وفي سَمْعِي نُورًا»(١) " إنا لله وإنا إليه راجعون!

مصيبة أن تكون لا تفهم إن الطاقة مصيبة، **المصيبة الأعظم** أن تدخل على دينك بعقيدة، ثم تأتي لها بأدلة من أي مكان وتلصقها بالدين! وحين تُسأل عند ربك: "من قال لك إن النبي -صلى الله عليه وسلم-مقصده عندما قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا»، أن أعطِني طاقة من نور؟"

من قال لك؟ في أي مكان قرأت في كلام السلف أن هذا معنى الحديث وعلى ذلك لو قلنا: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض﴾(٢) ماذا ستفهم؟ إذا كنت تفسر النور في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- على أنه الطاقة، ماذا ستقول؟!

المقصد أن هذه "الفوضى الفكرية" **سببها** أن كل من جاء ثرثر على رأسنا؛ استسلمنا له! يكثرون من الكلام ونحن اعتدنا على أن الكلام الكثير كلام مقنع! فاستسلمنا فكريًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٦٣).

(٢) النور: ٣٥.

المشكلة تأتي من جهتين: أنهم يأتون بفكر مثرثر ويأتون بدليل.

وعندما يأتون بالدليل يسكتونا، ويكون غالبًا الدليل -مع صحة نفس الدليل- ليس شاهدًا على ما يقولون، نادرًا أن يكون شاهدًا على ما يقولون، وأحيانًا يأخذون أفكارًا جزئية ويأتون على هذا الجزء بدليل، وهذا الجزء بدليل، ثم يُركّبون الفكرة! وكل هذا ليس بصائب، هذا التفاف على النص يؤدي إلى فساده، من الضحية؟ في النهاية الضحية يكونون الآباء الذين يربون الأبناء، والحقيقة أن الضحية الحقيقية هم الأبناء التائهون في الفوضى الفكرية التي يعيشها الناس، وهذه الفوضى الفكرة ليست فلسفة، لأنك تجدين آثارها بوضوح، تقرئين في أداوت التواصل -هذه المصيبة الكبيرة التي أخرجت بلوى الناس من قلوبهم- أن شابًا مسلمًا في ديار مسلمة رايته (لا إله إلا الله) يستهزئ بالدين! ويتعدى على الرسول الكريم!

يعني لا تظن أن الفوضى الفكرية عند المثقفين، بل الفوضى الفكرية هذه حصلت في المجتمع، عاشها الآباء والأمهات، دفع ثمنها الأبناء، وصلوا أنهم يمكن أن يصرحوا بالإلحاد! وأظن هذا ليس شيئًا خفيًا، هذا شيء مسموع ومعلوم ومرئي. إذًا الفوضى الفكرية ليست فلسفة، لها نتائج، الكلام عن الإلحاد من آثار الفوضى الفكرية، والكلام عن الإرهاب من آثار الفوضى الفكرية؛ لأن الإرهاب عبارة عن شذوذ فكري، من أين يأتيك؟ هذا يأخذه في طريق وهذا يأخذه في

طريق، وهذا يجعله يفكر بطريقة، فكانت النتيجة الفسوق الإرجاء، الإرجاء يعني يقول: "يكفي أن أقول: (لا إله إلا الله) وقلبي طيب ليس شرطًا أن أعمل أعمالًا!"، هذه من الفوضى الفكرية أيضًا، وتجد في كل باب فوضى فكرية لها أثرها في التربية.

إذًا نحن لا نتكلم عن فلسفة أو عن طبقة مثقفين، نحن نتكلم عن مجتمع دفع ثمن هذه الأخطاء.

الحل لنا كلنا: تصفية عقولنا من أي تفكير والانكباب على الكتاب والسنة، الانكباب عليهما ودراستهما من مصادرهما الصحيحة، أنت وصلك الكتاب والسنة ووصلك معهما فهمهما على منهج السلف، عندك تاريخ مجيد من المفسرين ويأتي كلّ منهم وينقح كلام من قبله ويبيّنه لك ويزيده وضوحًا ويرد الضعيف ويبين القوي، وأنت تقرأ هذا المجد الطويل وكل هذا الميراث العظيم فكيف تضعه وراء ظهرك وتستقبل قبلة الغرب أو الشرق وقبلتك هي قبلة العالم كله؟! أنا الآن لا أكلم أي وسط أنا أكلم وسطًا يرى نفسه مستقيمًا، أنت ترى نفسك مستقيمًا على الطريق المستقيم، دليل استقامتك: أن توحّد مصدر المعرفة، الله -سبحانه وتعالى- واحد في جلاله وفي كماله وعظمته، ينفرد بصفات الكمال، وينفرد كلامه بصفات الكمال، وينفرد ما أمر به وما نهى عنه في كتابه أو على لسان رسوله، ينفرد بالصلاح، فقط هو الصلاح، فقط هو وليس معه شيء آخر، ألست توحّد الله وتوحد

مصدر المتابعة؟ إذًا ما عندك إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتقول: "بذلك أنا أصل إلى الله، وأصل إلى الصلاح، وأصلح نفسي وذريتي."

فالهزيمة النفسية في جذور النفس، تجعلنا نلتفت ونجعل قبلتنا شرقًا أو غربًا، ونقول: "لا مانع أن نأخذ منهم"، "لا مانع" هذه تقولها عندما تريد أن تعمر أرضًا، تبني مبنى، تريد أن تشتري سيارة، لكن حين تأتي إلى النفوس وإعمارها وإشباعها فهناك ألف مانع، يقول لك: "كيف تكون عبدًا لله وتذهب لعبيد الدنيا تأخذ منهم كيف تتربى؟!

هؤلاء ما لهم إلا الدنيا، هؤلاء ما يُعَلِّمون إلا من أجل سوق العمل، هؤلاء ما يثقفون الناس إلا من أجل الأموال، ما يفعلون شيئًا إلا من أجل الدنيا، وأنت تسمع أن الله -عزَّ وجلَّ- يحذرك منهم، ويصفهم لك أنهم: ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾(١) وتسمع في القرآن كم يُحذّر النبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(٢) لا تطعهم معناها: "اعصِهم"، والأمر الموجه للنبي -صلى الله عليه وسلم- موجه لأمته ما دام يصلح لهم الخطاب.

إذًا قيل للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ ما صفتهم؟ ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ وأنت لا

---

(١) الإنسان: ٢٧.

(٢) الإنسان: ٢٤.

تحب العاجلة فالعاجلة عندك للآجلة، فإذا كنت تريد أن تخرج شخصًا يحب العاجلة ويذر وراءه يومًا ثقيلًا، خذ أفكارهم ستصل إلى ذلك.

معنى ذلك أن أي شيء يتصل بإعمار الأرض هذا فيه نقاش وتصفية، نأخذ ما يناسبنا ونترك ما لا يناسبنا، لكن عندما نصل لإعمار النفس، لا يوجد مصدرًا إلا الكتاب والسنة، وانظر لكل الثقافات، قبل أن تأتي مصيبة العولمة كان الناس متحفظين على أنفسهم، أهل الشرق متمسكين بدياناتهم وأفكارهم وأهل الغرب متمسكين بدياناتهم وأفكارهم، لكن العولمة تقول: "لا بد من طمس الهوية" ليس لك هوية ولا تتميز، وتأمل المطارات العالمية بل تأمل مطارات بلادنا، تذهب إليها فترى شابًا ولا تعلم هذا الشاب لأي جهة ينتمي! من انعدام الهوية، وهذا كله من نتائج التربية.

يعني لا نتنصّل من المسؤولية ونقول: "هم يلامون" بل يلام الذي لم يشبعهم بالمعرفة ولم يزرع في قلوبهم اليقين ولم يوصلهم للعزة بدين الله والعزة بالمنهج، وهذا كله صفحة نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن تنطوي كاملة وأن نكون أهلًا لأن ينجينا الله من كل هذا الذي كان في سنين طويلة، وتكون البداية هنا، لا بأس البداية هنا فيّ وفيكِ وفي جميع المسلمين المباركين، ثم تنقشع الغمّة ويأتي الله بخير حال لهذه الأمة وهي أهلٌ لأن تكون خير حال، والذي نمر به مجرد اختبار -ونحن

متيقنون- والذي يستيقظ وينتبه يفوز، وحتى لو لم يتغير كل الحال، فنحن على يقين أنه سيتغير الحال؛ عشنا إلى أن يتغير فالحمد لله، ما عشنا إلى أن يتغير فنحن نلقى ربنا واعتقادنا أن هذا الدين هو الحق، وأن أهله منتصرون اليوم أو غدًا، وأنه لا يمكن أن يكون غيره حق مهما قال الناس.

فهذه العقيدة هي التي نريد أن نلقى ربنا بها، ويلقى أبناؤنا وذرارينا ربنا بها، نسأل الله أن يكشف عنَّا الغمة ويجعل القرآن الكريم حقًّا ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا. اللهم آمين.

كان لا بد من هذه المقدمة من أجل أن نقرر سويًا أني لن أُرَبي إلا بالنصوص، كنا في الدورة الماضية ركزنا على نقطة نحن مصابين بالكسل كوضع عام، نحتاج أن نستعيذ بالله من الكسل...لماذا؟

لأن الميراث عظيم ضخم، والمقبلون عليه من أجل إخراج الخير منه أعداد معدودة، تخيل مكان مثل هذه القاعة مليئة بالكتب ويأتي شخصان يريدان أن يخرجوا من هذه الكتب الخير كله الموجود فيها! سيفنى عمرهم كله وهم لم يخرجوا الخير الموجود فيها، تصور هذا على مستوى العالم الإسلامي وعلى مستوى الميراث الذي بقي في العالم الإسلامي، وتخيل ماذا يحصل تجاه هذ الميراث من تجاهل، من عدم معرفة، لدرجة أن يكبر هذا الصغير وهو يعرف أسماء روايات لا

تنتهي، ويعرف أسماء كُتّاب لا نستطيع أن ننطقها بألسنتنا العربية! ثم حين نسأله: "هل رأيت كتاب صحيح البخاري أو صحيح مسلم أو الكتب الستة أو مسند الإمام أحمد أو مسند الدارمي؟" وكلما زدنا في ذكر الأسماء كلما كان لم يسمع بهذه الأسماء أصلًا! هذه أزمة من؟ من المخطئ في هذا؟

لدرجة أن البنت أو الولد يقول لك: "إذا أردت أن أقرأ، فلا تأت لي بكتاب كبير!" كبير وصغير! يقيس بالمقاسات! قالوا عن كتبنا: "الكتب الصفراء" ونحن صدقنا ما يقولون!

فكم من حاسد أثر في المحسود! الحقيقة أن القوم يحسدونا على ما تُرك لنا من ميراث ونحن نساعدهم وقبلنا حسدهم فينا، الله يساعدنا على ما نحن فيه!

اتفقنا على أننا نحتاج أن ننشط من الكسل وننهض ونقبل على النصوص ونبذل جهودنا أن ننظر فيها نظرات توصلنا إلى الحق والحمد لله الخير باقٍ في هذه الأمة والنبيهون والفهيمون يفهمهم الله ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾(١)، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾(٢) الله الذي يُعلّم خلقه ويفهمهم، نحن ماذا سنفعل؟ سنبذل جهدنا ونستعيذ بالله من الكسل ونسأل الله أن يوفقنا جميعًا.

---

(١) الأنبياء: ٧٩.

(٢) الأنبياء: ٨٠.

الآن الشاهد الذي سنبدأ به هو "قصة قارون"

وهذه القصة معروفة مشهورة، تفاصيلها واضحة من القرآن.

ماذا سنفعل معها؟ سنقف عند ما نستطيع من جمل في القصة ونقول: "هذا معناه أننا سنخرج بهذه القاعدة، وهذا معناه أننا سننبه أبناءنا على هذا المفهوم" يعني سنقف وقفات فقط نقصد بها: ماذا أقول لأبنائي عندما أربيهم؟

غالبًا سيكون نقاشنا في سن من ٩ إلى ١٥ سنة وهناك مفاهيم ممكن أن تبسّط أكثر على حسب ذهن الطفل، تبسّط أكثر ويصبح قبل ٩ سنوات، كالعادة هذا النقاش سيكون نقاشًا فكريًا، يعني ما وراؤه لزوميات سلوكية بمعنى أننا سنطرح عليه ونناقشه في هذه النقطة وهذه النقطة، من القصة، من خارج القصة، في نفس الموقف، بعيد عن الموقف، هذا ليس شأننا، المهم أن هذه النقاط مهمة متى ما وجدتِ فرصة توصليها.

سأضرب مثالًا من أجل أن تتصوروا -خارج قصة قارون-:

كنا في الدورة الماضية استشهدنا بحديث الحسن -رضي الله عنه- الذي علمه النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه حديث «اللهمَّ اهدِنا فيمَن هدَيت»[1]، وقلنا الحسن طفل، توفي النبي -صلى الله عليه وسلم- وعمره أقل من ٨ سنوات، والنبي يعلمه هذا الحديث المشهور وهو

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٥).

الطريق الوحيد لهذا الحديث، يعني الطريق الصحيح الوحيد لحديث دعاء القنوت هو الحسن -رضي الله عنه-! ما النتيجة التي خرجنا بها؟ خرجنا بنتائج كثيرة من أهمها:

← أن الطفل يُحمّل مسؤولية طلب الهداية؛ لأنه يدعو فيقول: «اللهمَّ اهدِنا».

يعلمه النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقول: «اللهمَّ اهدِنا» إذًا هو مسؤول أن يطلب الهداية، ففي أي فرصة تأتيك -ليس شرط حين يتكلم عن الدعاء، وحين يتكلم عن الدعاء هذه فرصة كبيرة- مثلًا يسمع أحدًا كبيرًا في العائلة يتناقش ويقول: "هؤلاء الشيوخ شتتونا!" أنتِ لا تستطيعين أن تردي على الكبير، صعب أن تردي عليه، فتأخذين هذا الصغير جانبًا وتقولي: "نحن مسؤولون أن نطلب الهداية، والله ابتلانا بوجود الخلاف ووجود الإشكالات، والذي يريد الحق يطلب الهداية ويقول: «اللهمَّ اهدِنا فيمَن هديت» ويقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ويقول كما قال علي -رضي الله عنه-: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي»[1] أنتَ مسؤول عن طلب الهداية وليس أحد آخر".

فأي فرصة لتعليم المفهوم انتهزيها؛ حتى لا نتكلم عن الآليات، الآليات ليست المشكلة، الآليات تعني: (الطرق التي بها ستُعلمين

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٥).

المفاهيم) ليست مشكلة، لماذا؟ لأن الصادق عندما يحمل الهم سيرقب الوقت، سيرقب الموقف الذي يُعلّم فيه، عندما تكون حاملًا لهمّ، كل فرصة تأتيك بمناسبة أو غير مناسبة ستستغلها وتدخل الموضوع، لكن حين يكون المفهوم غير موجود تمر عليك المواقف الصريحة التي من المفترض أن تدخل فيها المفهوم ولا تدخله!

ما الحاصل الآن في التربية؟

دائما يأتي سؤال: (كيف)، و(كيف) هذه آخر شيء نحمل همله، الجواب: "سييسر الله لك"

لكن: (ماذا سأُعلّمه؟) هذا هو المهم، ماذا تريد أن تُعلم ما المفهوم المهم الذي تريد أن تُعلمه. حتى لا تكون عندنا إشكاليات في كون (ما هي الطريقة التي أُعلم بها؟).

بسم الله، نحن سنتفق الآن على "مجموعة المفاهيم التي ممكن أن نقف بها مع القصة" مع ملاحظة شيء مهم جدًا، أن هذه القصة المشهورة وهي قصة قارون وخسفه، وكونه من الأغنياء، أتت بين سورتي النمل وسورة العنكبوت وهاتان السورتان حملتا فيهما ما حملتا من معانٍ.

أما سورة النمل فقد ورد فيها الكلام عن سليمان -عليه السلام- وملكه وكيف كان موقف ملكة سبأ وكيف كان الإيمان والتوحيد وكيف كان موقف الهدهد، يعني كأنه في سورة النمل قيل: "المُلك

بنفسه غير منتقَد" لكن "كيف تتصرف في المُلك؟" هذه هي مشكلتك فالنمل قالت "ليس منتقَد"؛ لأن سليمان -عليه السلام- أعطاه الله المُلك، وهذه الملكة ما منعها ملكها من الإيمان، فالحمد لله ممكن للإنسان أن يملك وما يكون هناك بأس عليه.

بذلك تطمئن وأنت تقرأ سورة النمل أنك أنهيت هذا المفهوم بالنسبة لك حتى تحصل عملية التوازن.

تأتي العنكبوت ماذا تقول؟ تقول: "إذا احتميتَ بملكك وسلطانك ستكون احتميت ببيت العنكبوت!".

تقول: "إن من يحتمي بملكه وسلطانه سيكون حاله مثل حال قارون وفرعون؛ سيحتمي ببيت العنكبوت!".

الأولى واضحة وهذه الثانية خطيرة جدًا؛ لأن الأبناء الآن الجميع يقول لهم: "لا يوجد مستقبل، لا توجد أموال، لا توجد وظائف!" هذا التخويف الدائم يوصلهم إلى إحساس أنهم لن يكونوا إلا لو كان معهم هذا المال أو هذا السلطان أو هذا المُلك!

إذًا في العنكبوت سنقول لهم: "من يحتمي بمُلكه يحتمي ببيت العنكبوت" لا تخَف من مسألة الأرزاق؛ أنت في أمان الله وضمانه، خاف أن تهلك عند ربك، ولا تنسَ فرعون وقارون.

الآن سنبدأ جملة جملة، وإن شاء الله نوفَق في ذكر ما نستطيع اليوم، ثم غدًا نتناقش في التفاصيل أكثر:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾

هذه الجملة الأولى من الخبر: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ﴾.

بداية السورة كان الخبر فيها عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾[1].

يعني في أول السورة الخبر عن فرعون ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرضِ﴾، هنا يقابلها مباشرة: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ﴾.

معنى ذلك: أن الناس في الكفر سواء اقتربوا أو كانوا بعيدين، إذا حصل الكفر فهم فيه سواء.

ما معنى ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؟ (البغي) معناه واضح؛ يعني حصل منه حالة غير متوقعة، المتوقع أن يكون لقومه ذا عطية، ذا رأفة، لكن هو اعتدى ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؟ بمعنى اعتدى عليهم.

لكن ما السبب في العدوان؟ السبب أتى واضحًا، قال تعالى:

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾

واضح وصف المُلك، ثم حين تبحث في القرآن لا تجد أبدًا وصفًا مشابهًا لوصف ملكه؛ أنه وصف أنه عنده كنوز، وكذلك وصفت مفاتيح الكنوز ماذا تفعل بالعصبة، فهذا الوصف الدقيق جدًا يبين أن هذا ملك عظيم.

---

(١) القصص: ٤.

المهم في هذه الجملة الفعل المنسوب لله، ماذا يقول الله عز وجل؟﴿وَآتَيْنَاهُ﴾. هل هذا يعني أنه من اجتهاده؟ هل هو من عمله؟ لا، بل هو بلاؤه.

وورد فعل ﴿آتَيْنَاهُ﴾ ثلاث مرات، وسنرى الفرق بين كل مرة أتى فيها هذا الفعل في القصة.

اتفقنا أولًا أن

← ﴿آتَيْنَاهُ﴾ فعل من أفعال الله دلّ على أن ما عند قارون إنما هو عطيّة محضة.

← ثم تسمع كلمة ﴿مِنَ الْكُنُوزِ﴾ وتفهم أن هذا ليس بالأمر اليسير ﴿الْكُنُوزِ﴾ تعني شيئًا كثير، والكنز هذا غالبًا يكون مدفونًا محفوظًا، أهله لا يتركونه إلا محفوظًا.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾

سنرى هنا مسألة مهمة جدًا لابد من لحظها في مسألة التربية، يقولون له: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ نأتي لمشكلة كبيرة وهي: حرص أبناؤنا الشديد على دوام الفرح، طبعًا هنا لابد أن نفهم ما هو المنهيّ عنه أصلًا في الفرح؟ من أجل أن تصبح هذه المسألة واضحة كعقيدة وبعد ذلك كتربية.

ما هو المنهيّ عنه في الفرح؟ ورد في القرآن نوعان من الفرح:

- فرح مأمور به أمرًا ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١].

يعني الآية قسمت الفرح إلى قسمين:

➢ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ إذًا نفرح بفضل الله ورحمته، ماذا يكونان؟ سيكونان: القرآن، الإيمان، الإسلام، الطاعة الهداية، هذا كله يسمى (فضل الله ورحمته).

➢ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ كأنه يقال: "لا تفرح بما يُجمع؛ لأن الذي يُجمع ليس أهلًا لئن يُفرح به."

بذلك اتفقنا على أن هناك فرح مأمور به، وعرفنا بأي شيء نؤمر؛ نؤمر أن نفرح بالطاعة وبالأبواب التي يُسّرت لنا لطاعة الله، مع هذا الفرح بالطاعة نضيف عليه **رجاء القبول**، يعني كما أننا نكون فرحين بفتح باب الطاعة نكون راجين القبول، خائفين الرد.

انتهينا من الفرح المأمور به.

- يأتي الفرح المنهي عنه كما ورد هنا في الآية ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ المنهي عنه أكيد هو فرح بالدنيا وزينتها -حتى نأتي بالفرح الطبيعي المقبول- يجعل العبد يشعر بثلاثة أنواع من المشاعر الخطيرة:

---

(١) يونس: ٥٨.

الشعور الأول الخطير: الاستغناء عن الله.

وهذا الذي كان عند قارون، يقول في النهاية:﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾[١] معناها أنه يرى نفسه أنه مستغنٍ عن الله، حين تصله نعمة الله، يرى نفسه مستغنيًا عن الله، قول له: "اطلب من ربنا وقل: يا رب"، يقول لك: "ما عندي شيء أطلبه من الله!"، مستغنٍ عن الله؛ يشعر أنه لا يوجد حاجة للطاعة والعبادة ولا حاجة لئن يرجو ربه؛ لأنه يشعر أن نعمته دائمة! أنه هو أتى بالنعمة أو والديه عندهم النعمة وستبقى محفوظة لا تزول فهو في غنى عن الله!

إذًا هذه أول علامة على أن هذا هو الفرح المنهي عنه: الفرح الذي يأتي للإنسان بمشاعر الاستغناء عن الله، يرى إنه لا يحتاج إلى أن يسجد ويقول: "يا رب أعطِني" ما عنده شيء وكأن الآخرة ليست شيئًا، كل تفكيره في الدنيا، وعندما يجد الدنيا أتته يقول لنفسه: "لماذا أعبد ربنا ؟!" بهذا المعنى.

الشعور الثاني في الفرح الخطير: يشعر صاحب الفرح بزينة الدنيا أنه خير من كل من لم يعطَ مثله، بل ويظن أنه دليل رضا الله!

فكروا في صاحب الجنتين في سورة الكهف يقول: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ هذا الشك خطير، لكن الأخطر منه: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي

---

(١) القصص: ٧٨.

﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾(١) لماذا تظن أنك ستكون أحسن من غيرك وستجد أحسن من هذا؟! لأن العطية عنده في الدنيا تدل على أنه لابد أن تكون هناك عطية في الآخرة! في تفكيره أنه أُعطي؛ لأنه خير الناس، والعطية التي أوتيها دليل على أن الله يحبه! وهذه المشاعر الموجودة عند أبنائنا، طوال الوقت يقولون لك: "لو كان الكفار أهل باطل لماذا يعطيهم الله؟" من قال لك إن الله لا يعطي إلا أهل الحق؟ لو كان لا يعطي إلا أهل الحق، هل كان يبقى النبي -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة عشر عامًا في مكة ويخرج منها بالصورة التي نعرفها كلنا؟! هذا يدل على أن الذي على الحق فقط، يُعطى؟ لا، ليس شرطًا، ولما حُبس -صلى الله عليه وسلم- في الشِّعب هو وأصحابه الكرام -خير من كان على وجه الأرض- ماذا يعني هذا؟ يعني أن العطية لا تدل على الرضا أبدًا، لكن صاحب الفرح المذموم ما مشكلته؟ أنه يظن أنه هو خير من غيره عند ربه، وعطية الله تدل على أنه مقبول، وله مكانة وأن الله راضٍ عنه، ويعتقد ذلك في الناس؛ الذي أعطاه ربنا؛ فلأن ربنا يحبه، والذي لم يعطِه؛ فلأن ربنا لا يحبه! والذي أعطاه في الدنيا لا يُعقل أن لا يعطيه في الآخرة! لابد أن يعطيه في الآخرة!

هذا تفكير الناس، والعطية بلاء، لكن الذي يعاملها مثلما عاملها سليمان تكون نعم المعونة له، والذي يعاملها مثلما عاملها فرعون

---

(١) الكهف: ٣٦.

وقارون تكون مصيبة عظيمة عليه، وكلاهما ساخَ في الأرض؛ فرعون غرق، وقارون قال عنه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض﴾[١] يعني متشابهان من جهة أن الأرض التي هم فرحون بها، هي التي كانت العقوبة بداخلها! ففرعون قال: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾[٢] فغرق فيه، وهذا متفاخر بملكه وسلطانه ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض﴾.

الشعور الثالث عند صاحب الفرح المذموم: أنه حين يستغني عن الله، ويرى نفسه خير الناس عند الله يخرج منه الاعتداء على الناس وعلى الحق.

والاعتداء على الحق، يأتي منه الكبر الذي هو (رد الحق وغمط الناس)، رد الحق واضح؛ ينصحونه ويرد الحق الذي قالوه ويقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وغمط الناس ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ يعني منتفش أنه "أنا فوق والناس أسفل مني".

فهذه المشاعر كلها موجودة في القصة أنهم قالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أين صورة فرحه؟

فرح استغناء عن الله، يأتي يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وسيتبين كيف أنه يأتي بفعل الإتيان -كما نعبر في تعبيرنا "مبني للمجهول"- لم

---

(١) القصص: ٨١.

(٢) الزخرف: ٥١.

يسمَّ فاعله؛ يعني كأنه لا يعلم من أعطاه لكن حين أُعطي، أُعطي على علم!

وانظري للقصة حين تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ وهو يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

إن من المفاهيم المهمة جدًا ونحن نربي أبناءنا: أن نضع الدنيا في مكانها، إن من سفول الهمم أن يصل الأبناء أن يفرحوا إذا أكلوا، إذا أكلوا أكلة هم يختارونها يرون أنفسهم أنهم وصلوا إلى قمة السعادة هذه همة نوعها سافلة! لابد أن تحصل فيها مناقشات كثيرة حول أنه "لا تفكر بهذه الطريقة" كلما كبر كلما أصبح عقله أكبر، يعني المناقشات تصبح أنضج، نقول: "لو كنتَ صغيرًا دون السابعة دون الثامنة لكان الأكل كل شيء في الحياة، لكنك بدأت تكبر؛ ليست الأكلة التي تأكلها هي التي تدخل عليك السعادة، ولا لو حُرمتها انتهت الحياة! هذه أنت تأكلها ما أن تبلعها -حتى قبل أن تبلعها- يذهب طعمها!" ثم إن الله يربيهم كثيرًا، يعني كثيرًا ما يكونون مشتهين لشيء جدًا ثم حين يأتيهم يصبحون ليس لهم رغبة فيه، أحيانًا يعترفون وأحيانًا لا يعترفون، لكن هذه همة دنية أن يكون آخر ما نريد أن نأكل أكلة أو نشرب شربة فقط وتنتهي الدنيا عندنا وينتهي الفرح، هل أستطيع أن أنقُل هذا الذي نسميه "مراهق"؟ أنت لا تستطيع نقله تمامًا لكن نقطة نقطة في التفكير والمفاهمة تشعره أنه ليس مثل البهائم: نهاية

مراداته أن يأكل ويشرب، نهاية مراداته أن يلبس، أنت آدمي روحك التي في الداخل هي التي لها قيمة، أنت مِن الداخل إنسان لك قيمتك؛ ماذا تقول؟ كيف تفكر؟ كيف تنظر للحياة؟ كم تملك من مشاعر صحيحة تجاه هذه الحياة وتجاه الناس وتجاه هذه الرحلة التي تعيشها، لابد أن يشعر أنه ليس بدن، هذا البدن يحمل روحًا لابد أن يطهرها وتزكيها، عندما يشعر الآباء والأمهات بهذه المشاعر تتسرب للابن أولًا كالدواء ثم تصبح كالغذاء، ويفهم أنه هو أقدس من أن تكون حياته من أجل أن يأكل كالأنعام. وكثير في القرآن ما يأتي هذا التشبيه ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1] اتركهم يفعلون ما يريدون، لكن نحن نكبر بدون أن نشعر أن هذه القضية خطيرة ثم نُفاجأ أننا أكلنا وشربنا ولم تكن نهاية سعادتنا! بل كل الذي أكلناه وشربناه كأنه لا شيء في تاريخنا ليس له قيمة، إذًا ما الشيء الذي يُدخل على القلب السعادة؟ ليس هذا أن تأكل وتشرب، هناك أسمى من ذلك، وإن كان الأكل والشرب سببان للّذة لكن لذة محدودة لا تصل إلى حد أنك تفرح.

وكل شيء يحصّله في الدنيا يقول: "أنا لا يوجد أحد في الدنيا مثلي الآن من السعادة" لماذا؟ لأنك اشتريتِ فستانًا! أنتِ التي تعطي هذا الملبوس الصفة، ليس هو الذي يعطيك الصفة، أنت التي تجعلين له

(١) الحجر: ٣.

قيمة ليس هو الذي يجعل لك قيمة، دائمًا لا بد أن تدور المسائل في التفكير على طريقها الصحيح، حتى يعرف هو ماذا يقدر في المسائل.

فنحن لو فهمنا بنفسنا وكررنا عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ يعني حين تزهو وتشعر نفسك لا يوجد أحد في مقدارك! هذه مشاعر لا يحبها الله منك، لابد أن تنتبه. يأتي يقول لك: " هل حرام علينا الفرح؟" هذه المشكلة دائمًا في هذه المنطقة الحرجة.

- أولًا لنكن متفقين على أن الآية صريحة في كون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.
- بقي أن نحدد منطقة الفرح الممنوعة هذه التي تسبب الزهو عند الإنسان، التي تجعله كذا وكذا وأنت حتى تعرفي هذا الفرح، نحن نعرف نميز هذا الفرح والنساء خاصة يستطيعون تمييز هذا النوع من الفرح والزهو ويرونه في نفوسهم في المواقف، أنت اعرفيه جيدًا وضعي يدك عليه وبعد ذلك انقليه بمشاعره.

يعني لو ضربنا مثالًا: أنت تلبسين ملابس الخدمة في البيت، مشاعرك طبيعية عادية، لكن البسي حتى تخرجي لمناسبة أو فرح! يعني أنت نفسك الآدمية لكن ماذا حصل؟ تشعرين أنك تمشين على وسادة هوائية وليس على الأرض! هذه الحقيقة! هذا التحول الخطير معناه أنه حصلت حالة من الزهو، أكيد هذا غير ذاك، يعني أن لبس الخدمة

ليس مثل اللبس الذي سيكون مرتبًا، لكن أنت نفسك لابد أن يكون تفكيرك أن هذا كأنه ستر، ولكل مقام مقال ونضع أنفسنا في المكان الصحيح، نحن أرواحنا هي التي تسمو بنا، نحن نصبح أوادم بأرواحنا، وهذا لا يمنع أبدًا من حب الزينة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1] خذ الطيبات من الرزق وتمتع بها على قدر البدن، قلبك لا يدخل في الموضوع، لا تصبح المتعة أن تأكل، المتعة أنها تعود للمنزل تكلم صاحبتها: "أمس تعشينا في مطعم كذا وكذا واسمه كذا وكذا!" هذه هي نهاية المتعة، المتعة أن تخترع لها كذبة أنها سافرت وفعلت! هذه المتعة! وكبار وصغار يفعلون ذلك، هذا دليل على أنه مسألة مستشراة في نفوس الناس، استشرى في نفوس الناس الفرح بالدنيا.

نحن متفقون أن الفرح الممنوع هو الذي يأتي بالزهو، والزهو هذه مشاعر خطيرة جدًا، تجعل الإنسان يفكر في أنه أحسن من غيره، أفضل من غيره، أعلى من غيره، حتى ممكن أن تجعله لا يريد أن يكلم الناس بسبب لبسه وترتيبه، ولا يريد أن يكلم الناس الذين عنده ليسوا مرتبين مثله!

---

(١) الأعراف: ٣٢.

الآن عرفنا أن كونك "تتمتع" غير كونك "تفرح"، "تفرح" هذه مشاعر قوية تجعل الإنسان يميّز نظرته على حسب نظرته للفرح، يعني يفرح بالأشياء ويصبح يميزها؛ "هذه جيدة لأني أفرح بها وهذه غير جيدة لأني لا أفرح بها!" ولذا يقول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾(١) لماذا؟ ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(٢) كله مقسوم، وأنت تُختبر: كيف تسعى لهذا المقسوم؟ تُختبر: هل تمشي في طريق الحق أو في طريق الباطل؟ فهو أصلًا قد قُسِم لا أنت حصلته، ولا أنت بذلت له، الله قسمه وأنت تُختبر: هل تمشي مع هذا الذي قُسم بطريق صحيح وتشكر، أم لا تشكر نعمة الله؟!

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له»(٣).

"شَكَر" وليس "فرح"، فأنت قد قُسم لك، إذا أتاك المقسوم لا مانع أن تشعر بالمتعة وأثرها أن تشكر، لكن تفرح وتشعر أن الدنيا ملك يمينك وأن كل شيء قد بلغته وأنك في غنى عن كل شيء! لا، هذا الفرح ممنوع.

---

(١) الحديد: ٢٢.

(٢) الحديد: ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

لازلت أقول لكم هذه نقطة حرجة جدًا في مشاعر إنسانية كل الناس يبحثون عنها وكل الناس يقولون لك: "نريد أن نفرح، وما المانع من الفرح؟" لا مانع من الفرح لكن اعرف بأي شيء تفرح، وإذا كانت روحك قد سَمَت ستذوق طعم الأشياء بصورة مختلفة، والناس عندما تُكشف لهم حقائق الأشياء يذوقون طعمها الحقيقي ويقع في نفوسهم الفرح المأمور به.

- إذًا ماذا سنفعل مع هذا الصغير الذي يريد أن يفرح طوال الوقت؟

تكون هي في البيت طوال الوقت تقول: "استضيفي صاحباتي حتى أفرح معهم، أرغب بالذهاب معهم لأفرح معهم، ونريد أن نذهب لمناسبة كذا لنفرح سويًا!" وطوال الوقت نحن في هذا الكلام: "نفرح"

هم يتكلمون بهذا طوال الوقت! قل لهم: "الحياة لم تُخلق من أجل أن تضيعها بهذه الطريقة"، فنبدأ رويدًا رويدًا بالكلام كدواء إلى أن يصبح غذاء، إلى أن تنتقل لهم خبراتنا، هم سيرون أن الذي نقوله هذا ضرب من الخيال، غدًا يفتحون أعينهم ويدركون أن الذي تعلموه هو الصواب.

أنتم لا تفكروا في رد فعلهم الآن؛ لذلك من البداية اتفقت معكم على أننا لا نريد أن نصل من خلال النقاش إلى أفعال سلوكية، نحن نريد تغيير فكري، دعيهم يبدؤون يفهمون أن الحياة لم تُخلق لأجل البدن،

بل الحياة خُلقت من أجل أن تسمو هذه الروح وتلتذ، وتذوق طعم الأشياء لكن أنت قوّي ذوقك، وهذا كله بالمفاهمة والكلام المتكرر، كنا اتفقنا سابقًا؛ أن في سن قبل تسع سنوات التكرار يكون حرفيًا، نفس الكلام تكرره، وبعد سن تسع سنوات تقريبًا نبدأ نتفنن بالتكرار يعني نقول الكلام مرة بهذه الطريقة ومرة نفس الكلام بالطريقة الأخرى، نتفنن؛ لأنه يصل لدرجة أنه يبدأ أن يمل، فلا بأس ندخل في نقاشات وندخل في نقاشات والنقاشات لا نقول: "افعل أو لا تفعل"، نقول: "فكر بطريقة صحيحة."

"افعل ولا تفعل" هذه تأتي في الصلاة، في الصيام، في الأعمال، نحن لا نريد فقط أن يعمل، بل نريده يفكر بطريقة صحيحة تجاه الأشياء، وعندما يفكر بطريقة صحيحة سيتيقن بالأمور، ثم سيكون مصدر الأعمال هذا اليقين، يعني عندما يسمع الصغير مقطعًا يكون يفكر جيدًا -أنا أتكلم عن موقف حقيقي- هذه فتاة عمرها ثلاث عشرة سنة وسمعت في المقطع من يقول: "لا نأخذ القرآن دستورًا للبلاد، هذا نعبد الله به صحيح، لكن لا نحكم به!"

تفاجأت بالكلام شعرت أن هذا الكلام غير صحيح، تقول الصغيرة: "القرآن فيه كل شيء وبه نعمل كل شيء" هذا كلام يقيني وممكن أشخاص كبار ولا يعرفون أن يصلوا لهذه النتيجة، فمعناها أنتِ عندما تكملينهم فكريًا يأتون عند الأشياء الخطيرة التي تذهب بدينهم

ويصدونها، وممكن هذا الابن نفسه حين توقظينه لصلاة الفجر يُرهقك إرهاقًا، لكنه لما جاءته هذه الفكرة الخبيثة استطاع أن يردها.

المسلك إن شاء الله يأتي، ويأتي مستقيمًا لكن اجعلي تفكيره الصحيح يقوى، مع بقاء الأمر بالمسلك.

النقاش الذي نتكلم عنه لا تأتي بعد أسبوع يفرح لشيء فتقولي: "ممنوع تستعمل كلمة نفرح"، لا اصبروا عليه نتناقش ونتناقش نعيد ونزيد ونتكلم إلى أن تنسحب عنده هذه الكلمات لمكانها الصحيح، أنت ستفرح وتشعر بالفرح وانشراح الصدر لكن بالشيء الذي يجب أن تفرح به يعني عندما تصل رحمك مثلًا، وتفعل ما أمرك الله فتشعر بالفرح للقربة لأنك قمت بالقربة، يعني تمارس الحياة وتجعل زوايا القربى إلى الله مصدرًا لانشراح الصدر، و"زوايا القربى إلى الله" هذه كثيرة في حياتنا ومسلكنا العام، بالإضافة إلى الواجبات من الصلاة والأعمال التي تلحقها، هناك كثير من السلوكيات في حياتنا طاعة وعبادة وقربة؛ الكلمة الحسنة، الإحسان إلى الناس، معاونة الناس، تأتي تشرح لصاحبتها قبل الاختبار وتبذل جهودها وتأتي المسألة وصاحبتها تدخل وتحل، ونجحت بسبب أنها ساعدتها، تفرح بالإحسان، لا أن تفرح بأنها أحسن منها، لا، تفرح أنها وُفّقت للإحسان.

فإذن هناك تفاصيل كثيرة ممكن الإنسان يفرح بها ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ معناها:

- كل هذا الدين المستقيم الذي فيه سلوكيات صحيحة،

كل مرة تمارس القيم العليا تفرح بها.

- كل مرة تغلب فيها وسواس الشيطان تفرح بها.
- كل مرة تستعيذ وتهرب إلى الله تفرح.
- كل مرة تدفع الخوف تفرح.

إذًا هناك أبواب كثيرة، لابد أن نفهم نحن بأنفسنا: كم سِعة ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾؟ فتخيل عندما تحسن للناس وتعطيهم وتفرح بذلك، أكيد سيعالج في داخلها البخل، يعالج في داخلها الأنانية، يعالج أمورًا كثيرة بالفرح بهذه الأمور، لكن لو كانت فقط تريد أن تأكل وتشرب، فهذه مشاعر أخرى!

حين تنفق تشعر بالفرح، حين تطرق على الجارة وتعطيها تشعر بالفرح، حين يطرق الباب أحد ويكون هناك طعام تفرح أنه جاء ليأخذ هذا الزائد، كل هذه المشاعر فيها فرح.

فلابد أن نفهم أنه يُقصد بقوله تعالى ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾: الدين وما يتصل به من كل السلوكيات الحسنة وكل المواقف الصحيحة التي ممكن أن تقوم هي بها وتفرح بها.

يعني تأتيك الصغيرة -وأنا أتكلم عن مواقف حقيقية- في الصف الثالث الابتدائي وقتما كانوا يختبرون تحريريًا، تأتي فرحة جدًا، لماذا؟ تقول: "كلهم غشّوا وأنا لم أغش"

فَرِحة بممارسة قيمة عُليا، فهذه مواقف للفرح وكلما قربناها للصغير كلما استطاع أن يذوق طعم الفرح الحقيقي.

اتفقنا أن هذا الفرح شعور مطلوب، لكن ضعه في مكانه المناسب، ودائرة الفرح المطلوب واسعة فوق ما نتصور، كل إحسان يأتي بفرح، كل استقامة تأتي بفرح، كل ممارسة للقيم العُليا تأتي بفرح، كل عمل نافع يأتي بفرح، لكن الأنانية وما يلحقها لا تأتي بالفرح، وأنتم لاحظتم أكيد في القصة أن قارون لا يفكر إلا في نفسه؛ ولذلك قال له الناصحون من قومه: ﴿لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

إذًا هل نحن منهيّون عن الفرح إطلاقًا؟ لا، نحن منهيّون عن فرح الأشر والبطر الذي في قلب صاحبه ثلاثة مشاعر خطيرة:

١. مشاعر الاستغناء عن الله.
٢. مشاعر تفضيل الله له على الخلق في الدنيا والآخرة.
٣. مشاعر الكبر على الحق والناس.

إذًا نحن بماذا أُمرنا أن نفرح؟ ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ وفضل الله ورحمته دائرة واسعة جدًا وهذا الفرح يوافق الفطرة؛ لأن الفطرة عندها مستحسنات وعندها مستقبحات فحين تفرح بطاعة الله وممارسة القيم العليا، كيف ستكون الفطرة؟ مُستحسِنة لهذا الفرح، وحين تفرح بالظلم وأنه حصل لفلان كذا وتشمت به، فالفطرة تعارض ذلك.

﴿وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾

هنا مفهوم عظيم جدًا يبين بالضبط العطايا لأي شيء تُصرف، الأصل في كل عطية أُعطيتها: مال، عقل، فهم، بيت، أبناء...أن تغتنمها في إيصالك للآخرة.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ يعني ادخل داخل هذا واجعل بُغيتك من التعامل معه الدار الآخرة، ثم يقال لك: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

﴿ابْتَغِ﴾ يعني اطلب الدار الآخرة. كأن يقال: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما لم يحصل عند غيرك، وكل شخص حصل عنده من وسائل الآخرة ما لم يحصل عند غيره المفترض أن يكون اهتمامه بأن يُصرّف هذا الذي حصل له في الوصول إلى الله.

بمعنى: هذا قارون كان الكلام معه عن المال، لكن أنت يُسّر لك ما لم يُيَسّر لغيرك في كونك تجاور مدرسة تحفيظ، أو هذا يُسّر له ما لم يُيَسّر لغيره في أنه حفظ في صغره القرآن ويُسّر له أن يُعلمه، هذا يُسّر له ما لم يُيَسّر لغيره فوضعه الله على ذرية المسلمين يعلمهم، كل واحد يُسر له ما لم يُيَسر لغيره، المفترض أن يبتغي في مكانه، في مكان ما يُسّر له الدار الآخرة، وعلى ذلك الأمهات في بيوتهن يُسر لهن البيت والأمن والأمان ومن يصرف عليهم، وبقي عليهم تربية هؤلاء الأبناء؛ إذًا يبتغون في تربيتهم الدار الآخرة، وعلى ذلك فهذا الأمر يطول كل الناس، أن كل

من أعطي ما يميزه عن غيره، عليه أن يبتغي فيما يميزه الدار الآخرة، يعني أنت عُلمت من علوم الطب، وأنت عُلمت من علوم الفقه، وأنت عُلمت من علوم العلم الذي يسري فينفع المسلمين؛ تربي الأطفال، تنفع الأمهات، ماذا يقال لك؟ الذي أُعطيته أُطلب به الدار الآخرة.

فعلى ذلك كلّ منا في مكانه لا يقل: "أنا ليس عندي ما عند قارون أو ليس عندي المال" لا، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ﴾ وهذا سر في كلمة ﴿آتَاكَ﴾ وسيتبين لنا كيف أن الله تعالى يؤتي كل عبد ما يكون وسيلة للقربى من الله.

بقي عليه أن ينظر لما أعطاه الله إياه ويتقرب به إلى الله، المشكلة: أن احتقار نعمة الله يسبب لأناس كثير أن لا يبتغوا فيما آتاهم الله الدار الآخرة، لا يعرف ماذا أعطاه الله ووهبه، وهذا غالبًا ما يكون -خصوصًا عند الصغار في السن، الشابات- بسبب الشتات، صحبة مشتتة تفكير مشتت، ذوبان! تكون شابة والله أعطاها عقل، والكبير ينظر له ويقول: "هذه تفيد في مكانها" لكن مع صاحباتها تضيع ولا تحسن وتفسد نفسها، فهذا كله يجعل الإنسان لا يُميّز ما أعطاه الله؛ لذلك لابد من وجود الوالدين يركزان، لابد من وجود مربين يقولون لهؤلاء: "الله أعطاك فلا تضيع نفسك في الصحبة، الله أعطاك فلا تضيع نفسك بمقارنة نفسك بالناس الأعلى والأدنى، الله أعطاك فلا تذُبْ في داخل الذائبين"

وهذه المشكلة نلمحها كثيرًا في الشابات -والشباب- حتى حين يكبرون تجدهم لا يعرفون ما الذي أعطاهم الله! فتكون النتيجة أنهم لا يغتنمون ما أعطاهم الله في التقرب إلى الله ولا يشعرون أن الله أعطاهم شيئًا يميزهم ولا يفتشون ولا ينمّون ولا يبذلون أنفسهم للمسلمين، حتى في الجلسات الهادفة، حتى لو جلسنا جلسة قراءة يجتمعون مع بعضهم وتقول لهم كلامًا نافعًا فتجدهم يضحكون سويًا ويتكلمون ويتذكرون كلامًا لا معنى له! عندكم عقل تستطيعون أن تنموا، تستطيعون أن تكونوا، لم لا تنتفعوا؟!

غالبًا الأوساط غير الجادة ما تُشعر الإنسان أن عنده شيئًا أعطاه الله إياه، مشاعر ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[1] هذه مشاعر ضعيفة، صبغة الاستهتار قوية بكل شيء صبغة الاستهتار!

هذه مشكلة موجودة عند الأبناء ما نُقدّر عطية الله، انظري لبناتنا وأولادنا في صفوف المدارس وهم يجلسون على كراسيهم كيف ما يشعرون بنعمة الله أنهم يتعلمون! ما يشعرون أبدًا أن الله أعطاهم من يُسهّل عليهم، ويكبرون إلى أن يصيروا معلمين، ومع ذلك تبقى نفس الصفة، لا يعرف هو مَن، وماذا أعطاه الله!

السبب طبعًا سيبدأ من البداية أنه وهو في السن الذي تتكون فيه شخصيته وتفكيره لا يوجد أحد يقول له: "أنت ربنا أعطاك، فكّر ماذا

(١) مريم: ١٢.

أعطاك، بمَ ميّزك، ثم هذا الذي ميّزك به ماذا تفعل به؟ تتقرب به إلى الله، لا أن تتحسن مع أصحابك، ولا أن تُظهر نفسك مع الناس، ولا تريد به العلو مع الناس" لأن هناك خطًا فيه ناس جادين يعرفون من هم، يقلبون الصفحة على أصحابهم ويمشون في الطريق، المشكلة عندما يمشي في الطريق فيريد الدنيا، وأن يعلو على الناس الذين حوله وأن يكون أحسن الناس!

طبعا هذه مشكلة وهذه مشكلة، هما مشكلتان متساويتان؛ أنك تكون لا شيء ويكون أعطاك الله كل شيء! كان عمر -رضي الله عنه- يصف هؤلاء الناس ويقول: "إني لأكره أن أرى أحدكم فارغًا سبهللا لا في أمر دنيا ولا في أمر آخرة".

هذا شيء يحزن والمشكلة حين تكلمينهم وقد كبروا ما تنجحين معهم بقدر وأنت تكلمينهم وهم صغار، لا نريد أن ننفخه طوال الوقت ونقول له: "أنت ذكي، أنت فهيم" بل نقول له: "ربنا رزقك عقل يفهم، ربنا رزقك لسان طيب، ربنا رزقك القدرة على الإقناع، ربنا رزقك أنك تستطيع أن تصلح، ربنا رزقك احترام القيم العليا".

تكلموا عن الله ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ تُكشف صفحة ليعلم ما عنده.

لكن نحن الآن لو راجعنا أنفسنا سنجد شيئًا كثيرًا مما أعطانا الله لا ندري عنه ولا فكرنا فيه ولا حمدنا ربنا عليه ولا استعملناه قربة له!

ليست القضية أن تكتشف نفسك، وبعد ذلك تقول: "أنا العبقري أو أنا الذكي أو أنا الفهيم" لا، "أنا العبد الذي ما انتفع بما أعطاه الله! كم أحتاج إلى استغفار في كوني ما انتفعت بما أعطاني الله، كم أحتاج إلى مراجعة وأعرف عطية الله ثم أنتفع بها!"

أنت حين تجدين نفسك في يوم من الأيام وأنت مثلا في المرحلة المتوسطة أو الثانوية اختلفت صاحباتك ثم أصلحتِ بينهم -قلتِ لهذه كلامًا ولهذه كلامًا- وتصالحوا، بعد ذلك بفترة من الزمن جربتِ نفسك في موقف ثانٍ وتصالحوا، حسنًا، هذا معناه أنك تملكين الموهبة على الإصلاح، هذه موهبة، عطية نادرًا ما تكون موجودة، ابذل جهدك لا تترك مجالًا في الإصلاح إلا وتدخله، غير أحد ثانٍ عندما يذهب ليُصلح يعرف من نفسه أنه يخرب الدنيا! هذا ربنا ما أعطاه هذه الملكة، لا مانع أن ربنا ما أعطانا لكن نعرف ماذا أعطانا ولا نذهب نتفلسف في شيء ليس لنا!

المطلوب: ضع يدك على ما أعطاك.

تبسط العلم، تقربُه، تفهمُه، تحتوي الصغار، تحتوي المراهقين، تحتوي الكبار، أنت ماذا أعطاك الله؟ وفكّر ماذا أعطاك، والذي أعطاك ابتغِ به وجه الله والدار الآخرة؛ لأن كل العباد عندهم عطية ويمكنهم بعطية الله أن يصلوا للدار الآخرة، فلا يوجد أحد معاق هنا في الطريق، لكن يوجد من لا يعرف ماذا أعطاه الله؛ ولهذا يُعيق نفسه.

فالمقصد الآن: المنافسة تكون فيما عند الله، وتعرفون الحديث الشريف الذي يحمل معاني عظيمة وفيه وقفات كثيرة، كيف يأتي الصحابة للنبي -صلى الله عليه وسلم- ويقولون: "سبق أهل الدثور بالأجور" عندهم حزن من الأغنياء، لكن حزن لأي شيء؟ من أجل غناهم؟ لا، من أجل سبقهم بالأجور، انظري لهذا الفرق في التفكير: يتنافسون على ما عند الله، وكيف أرشدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم أخبرهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لكن المقصد أن كلّ منّا قد أعطاه الله ما يصل به إلى الآخرة.

نأتي للجز الثاني: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾

المعنى: أنك من بذلك وعطائك فيما آتاك الله للآخرة قد يطرأ عليك أن تنسى الدنيا!

وهو شعور طبيعي لمن صدق في ابتغاء الدار الآخرة، تأتيك مواقف كثيرة تنسى؛ لأن اللذة والفرح سيكون لها مصدر آخر فما تذوق الروح -مثلا لو كانت تطلب العلم- من طعم العلم أحلى من أحلى طعم ذاقه أهل الدنيا، فممكن ينسى الإنسان بذلك الدنيا.

وقد ورد في الآثار كلام كثير عن السلف الصالح كيف يشترون سمكة ثم يجدون شيخهم، فيتدارسون ثلاثة أيام ما كتبوه عن شيخهم إلى أن يُصيب السمكة العفَن وهم ما أكلوا! لماذا؟ هل يمكن أن يُتَصوّر هذا؟! يُتَصوّر وأكثر منه؛ لأن الروح عندما تجد هذه اللذة

تنسى، لكن المطلوب في الشرع ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ طبعا نحن ما نحتاج هذه الوصية! أنه لا تنسَ نصيبك من الدنيا، لكن نحن نتكلم عن الشرع ماذا يقول.

إذًا نحن عندنا جهتان:

الجهة الأولى: نناقش معه إلى أن نكتشف نحن وهو ماذا أعطاه الله من رِقة، من أدب، من أخلاق، من قدرة على التواصل، من الإقناع، من جمع الناس عليه. كل هذا من ٩ إلى ١٥ سنة يُكتشف، ثم نقول له: "أنتَ أصحابك يسمعون كلامك إذًا أرشدهم، وخذهم إلى الصلاة، قل لهم كذا، صلوا الضحى، ابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة".

الجهة الثانية: أن يعلم أن هذا لا يعني أن ينسى نصيبه من الدنيا بل نقول: "هذه أيضًا تنفعك في كذا وكذا من الدنيا."

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾

هنا نصل إلى قيمة عظيمة في التربية، وهي بمثابة الأمر الآن ﴿وَأَحْسِنْ﴾ يجب عليك أن تكون محسنًا، وحين تكون محسنًا وتفكر في هذه القيمة العليا "الإحسان" اعرف أنك بذلك تشكر نعمة الله الذي أحسن إليك، يعني إحسانك ليس تفضلًا على أحد، إنما إحسانك نوع من شكر إحسان الله لك.

دعونا نفكر في الثانية قبل أن نفكر في القيمة، يعني ما نناقش الآن: أنت كيف تحسن؟

سنناقش الثانية وهي ﴿أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ طوال الوقت لا بد أن نتكلم، وكل فرصة نجدها لا بد أن نقول: "أحسن الله إلينا فآوانا، أحسن إلينا فأحسن خِلقتنا، أحسن إلينا فجعل لنا عقولًا سوية ونفوسًا سوية، أحسن إلينا فجمع عائلتنا، أحسن إلينا فلم يفرق شملنا، أحسن إلينا، أحسن إلينا..." فيبقى يشعر الإنسان بإحسان الله.

ما مشكلة قارون؟ أنه ما نسب النعمة، ونسبة النعمة ليست كلمة نقولها في أول الحياة، ومطلوب أن تستمر إلى نهاية الحياة، ولا في أول اليوم وتنتهي في آخر اليوم! المفترض أن تبقى تُقال طوال الوقت؛ "أطعمنا، سقانا، كسانا، آوانا، أحسن الله إلينا فجلعنا من أهل التوحيد، أحسن الله إلينا فجاورنا البيت العتيق، أحسن الله إلينا فسهّل علينا الطاعة، أحسن إلينا فجعل والدنا هذا طبعه" بالتفاصيل، في الكلام عن الإحسان لا يصلح الإجمال، من أجل أن تصبح عقيدة موجود في نفس الصغير لا يصلح الكلام بالإجمال، لا بد من الكلام بالتفصيل.

وإحسان الله إنما هو كلام عن كل النعم، لكن من وجه أنه: "تفضّل، أنعمَ، أحسنَ، عاملنا ببرّه إنه هو البرّ الرحيم" كل مرة تعيدين عليه كيف برّنا الله، كيف وصلنا بالخير ونحن ضعفاء عبادتنا لا شيء، والله غني عنا وعن عبادتنا" فيبقى في المشاعر أن الله يبرّ خلقه، أن الله يُحسن إليهم، أن الله يتفضل عليهم، هذه العقيدة من أهم العقائد التي

تُلين نفس المتربي، تتكرر بالتفصيل، وبكلام مختصر: "إذا كنتِ لا تعيشينها لن يعشيها أبدًا" لو كنتِ لا تحملين مشاعر أن الله برّكِ ووصلكِ وأعاطِ وأنعم عليكِ وتفضل وتشعرينها بمقدار نفسك، لن تصل للصغير أبدًا، لكن أنتِ عيشيها ستجدينه يعيشها ويَلين في يدكِ عندما يشعر بمقدار إحسان الله؛ لأن الفطرة تُوجب حب من أحسن وشكر من أحسن، ولا يوجد اثنان في الدنيا يختلفون على هذه الحقيقة الفطرية.

لكن المشكلة الفرق الشاسع بيننا وبين كل أهل الدنيا: من حقيقة الذي أحسن؟ هذا الفرق بيننا وبين غيرنا.

تأملي عندما تسمعين هذه السخافة العجيبة: حين يأتيك شخص مثل ما يسمونه "غاندي" ويأتي يقول عن البقرة إنهم يحبون البقرة، وأنها مفيدة أكثر من أمهم! لمَ؟ يقول: "تعطينا الحليب وحتى عندما تموت لا تكلفنا في دفنها!" أي عقل هذا؟! من أحسن إليك؟!

فهذا الفرق بيننا وبين كل الناس، فكلنا نشترك في الحقيقة الفطرية التي تقول: "حب من أحسن، شكر من أحسن" لكن "من في الحقيقة أحسن؟" هذا هو الفرق، فأنت طوال الوقت لابد أن تؤكدي عليه "حقيقة من أحسن"، وهذا قارون مشكلته إنه أنكر أن الله أحسن إليه، فنحن نُخرج من بيوتنا قارون! حينما ننسى مسألة نسبة الإحسان إلى الله!

حينما يضعف بذل جهودنا في هذه الحقيقة، لو فقط أنت تعيشيها لن تتعبي فيها؛ لأنك تكونين شاعرة بها؛ تشعرين بأن الله وحده هو الذي أعطاكِ، وإذا شعرتِ بهذه المشاعر تخرج مع أنفاسك، فقط بقي أن نقشع عن أنفسنا غمة الإحساس بـ "أنا طبخت، أنا ربيتكم، أنا علمتكم، أنا درّست لكم، أنا اهتممت بكم، لو لم أكن موجودة ما كنتوا تسوون شيئًا...!" إلى آخر هذا الكلام الخطير الذي يهدم كل نسبة الإحسان إلى الله، تصبح نسبة الإحسان إلى الله كذبة!

طوال الوقت تمنّين عليهم: أعطيتهم، فعلتِ لهم، ثم تقولين: "ربنا أحسن!" يعني هو لو يريد أن يرد عليك لقال: "قولي لنفسك!" لكنه يمنع نفسه، مسكين!

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللقاء الثاني

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا على أن يسر لنا أسباب الاجتماع حول كتابه وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ونرجو من الله أن نكون من الشاكرين على هذه النعمة العظيمة بهذا البذل اليسير، فها نحن نجتمع ونقتطع من أوقاتنا الوقت اليسير لنعرف عن هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ نقتطع أوقاتنا لفهمه وهذا يورث العبد بركة وعزة وقربة من الله -نسأله أن يقبلها- وفي نفس الوقت نحتسب على الله اجتماعنا على المدارسة نوعًا من أنواع الشكر لنعمة الكتاب العظيم، فالواجب أن نتقبل هذا الكتاب وننقاد له ونفهمه ونشكر الله على أن أنعم به علينا.

مراجعة ما سبق

في هذا البرنامج نناقش مسألة "التربية بالنصوص" ونقصد من هذا أن تكون قواعدنا التربوية مبنية على ما ورد في الكتاب والسنة خصوصًا أننا نسمع الناس يخرجون بنظريات تربوية استوردوها من الشرق والغرب أو تكون هذه النظرية من بنات أفكارهم، والتربية هي: كتابة في نفس طاهرة تبقى محفوظة إلى قيام الساعة. وكل من ربى سيُحاسب عند الله عما قاله وعما اهتم به وعما نبّه عليه وعما أخرج

من تحت يديه؛ لذا لا بد أن يستعمر قلوبنا الخوف من أن نكون سببًا لتحطيم الجيل وصناعة جيل هزيل، ونحن دائمًا نشتكي من هذا الجيل، والمشكلة كيف يشتكي الصانع من مصنوعِه؟! فنحن نصنع الإنسان ثم نشتكي منه! وهو ما خرج بهذه الصورة الهزيلة إلا بسبب تربية هزيلة.

والله -عزَّ وجلَّ- قال لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[(١)] وقال له: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[(٢)] كل هذا دليل على أن كلمة "الصناعة" تصلح في حق الخلق وحق البشر بل إن العرب تقول: "صنَّع جاريته" أي: بذل فيها لتكون في أحسن حال. فنحن نصنِّع هؤلاء الصغار بالمواد الخام التي يملكونها ولكن لا يصح أن نخطئ ولا نهتم بصناعاتنا ولا بالمواد الخام ثم نشتكي أنهم ليسوا في أحسن حال، فلابد أن نعرف السبب وهو: أن الكتابة على صفحة طاهرة من المفترض أن تكون بقال الله وقال الرسول، ومن يعرف الله ورسوله حق المعرفة لابد أن تكون النتيجة أن يكتفي بهما عن غيرهما.

والطريقة في كل لقاء أن نختار نصًا ونقول: "هذا النص يعلمنا أن نربي بهذه الطريقة وهذا النص يعلمنا أن هذه أولويات في التربية، هذا

---

(١) طه: ٣٩.

(٢) طه: ٤١.

شيء مهم، هذا لا بد أن نعلمه الطفل وهذا لا بد أن نناقشه مع أطفالنا".

إذًا هكذا نعلم الصغار حتى ينشأ جيل اعتمد على القرآن في بناء مفاهيمه، وهناك معلومات حول النفس الإنسانية التي هي سر حينما نكون لا نعرفها؛ نشرق ونغرب بهم على تفكيرنا! والصواب أن الذي خلقها هو الذي أرشدنا كيف نصنعها ونربيها فلابد أن يحصل عندنا حالة من الاكتفاء وقد ورد في الحديث: «ليس منَّا مَن لم يَتغَنَّ بالقرآنِ.»[1] قال البخاري: "(يتغنَّى) من (الغناء)،(الغُنْوة) أي الاستغناء بالقرآن عن غيره من الأفكار." المعنى: ليس منَّا من لم يستغنِ بالقرآن عن غيره من الأفكار، وأنت في باب تربية النفس لست بحاجة إلى أي فكرة من هنا أو هناك، وهذا الكلام نكرره في بداية كل لقاء؛ لتبقى المسألة واضحة في أذهاننا؛ لا يمكن أن نظن بربنا العظيم أن يخلقنا أجسادًا وأرواحًا ثم يطعمنا ويسقينا ما يقيم أجسادنا، ويتركنا هملًا فيما يقيم أرواحنا! وهذا يعتبر فساد اعتقاد ومن يلقَ الله بهذا يلقَه بشأن خطير، بل كلنا نتيقن بأن الله خلقنا فرزقنا ما يقيم أبداننا ولم يتركنا هملًا فيما يقيم أرواحنا ونحن بأرواحنا نتميز عن كل المخلوقات وليس بأبداننا؛ ولذلك عندما يُوصف الإنسان المعتني ببدنه على روحه، يُشبّه بالبهائم لأن الذي يميزه عن البهائم روحه؛ إذًا الذي أربيه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧).

سواء كنت أمًا، معلمة، مربية...بأي صورة متصلة بموضوع التربية هو روح هذا الإنسان التي فيها ثلاثة عوامل:

العامل الأول: الفطرة السوية التي أتت سوية تمامًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾[(١)] فطرته سوية تمامًا وفيها من المسلَّمات والمستحسنات والمستقبحات ما تجعله يميز بين الحق والباطل.

العامل الثاني: عنده أدوات الإدراك.

عنده سمع وبصر وعنده إناء الإدراك الذي هو الفؤاد، ففطرته السوية تحكّم له ما يسمعه ويبصره ويدخله فؤاده وتقول له: "هذا صواب وهذا خطأ".

إذًا هو جاء إلينا ومعه فطرته السوية ومعه أدوات التعلم.

العامل الثالث: نعمة الهداية.

وهنا نقصد هداية الدلالة التي اجتمع فيها نوعان:

- هداية الدلالة الموجودة في الكون.
- وهداية الدلالة الموجودة في الكتاب.

مثل هؤلاء المفترض ألا يضلون؛ لأنهم في بيئة تحفظ الفطرة السوية وسمع وبصر يُستعمل في مكانه وفؤاد مستعد لليقين وكل دلالات

---

(١) الإنسان: ٣.

الهداية موجودة؛ كون حوله يلاحظ فيه وآيات ترشده للصواب، ونحن دورنا في التربية: الاستفادة من العوامل الثلاثة وتكوين منظومة صحيحة مع بعضها.

هو ولِد ومعه مسلّمات ومستحسنات ومستقبحات، ولِد والظلم مكروه في قلبه قبل أن تكلمه عن الظلم، لا يوجد أحد يعلّم أحدًا أن الظلم مكروه! الإنسان يولد وفي نفسه أن الظلم مكروه، ثم يعرف أن الظلم هو: وضع الشيء في غير مكانه، فحين أعلمه أن الله هو وحده الذي أحسن إليه فيدرك أن الظلم هو شكر غير الله المحسن؛ فيعرف أن قلبه لو مال كل الميل لأحد من الناس أعطاه، يكون بذلك ظلم؛ لأن قلبه المفترض أن لا يميل لغير الله. وأما قول النبي: «مَن لا يشكرُ النَّاسَ لا يشكرُ اللّهَ»[1] فنقول: بلسانه يشكر الناس، لكن وجدانه وقلبه ما فيه إلا الله.

فهذا المتربي لديه فطرة سوية ويدرك أن الظلم أمر مستقبح -نحن لا نعلمه ذلك- هو يعرف أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، لكنه لا يستطيع أن يعبر عن ذلك، فنحن نفهمه ومع المواقف والأحداث يتبين له، وهذه وصية لقمان لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2] ما معنى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١).

(٢) لقمان: ١٣.

عَظِيمٌ﴾؟ أين سيستقبحه؟ عندما يخبره أنه "ظلم" وفطرته تبغض الظلم، فهذه أكبر كلمة يمكن أن تثيره تجاه الشرك؛ لأنه يعرف ما هو الظلم؛ فطرته السوية تبين ما هو الظلم، ثم يأتي البيان؛ كيف يعطيك ربك وتشكر غيره؟! كيف يحسن إليك فلا تحسن؟! فتبقى نسبة النعمة إلى الله مسببة لئلا يحصل شكر إلا لله، ما يحصل شعور بالذل لغير الله، ما يحصل شعور بالعبودية لغير الله، فأنت تسيرين في هذا الطريق وفطرته تترجم، ومعناه أن نفسر له الذي يراه بعينيه ويسمعه بأذنيه؛ هذا اللبن الذي أتانا ليس من المصنع ولا من البقرة إنما اسمع أصل القصة: الله يرزقنا إياه، من وراء الأسباب فكل مرة تُفسَّر له الحقيقة فالذي يسمعه بأذنه ويراه بعينيه يقع في قلبه بالطريقة الصحيحة؛ هذا الذي تشربه عطية جاءت عن طريق كذا وكذا الذي رزقك الله إياها، فدورنا أن نفسر له ما يراه ويسمعه، فحين نفسّر له هو يستعمل فطرته في المكان الصحيح، أنت طيلة الوقت تقولين له: "الله يحفظنا ويحفظ الخلق والله مالك الملك" ثم تودي أن ترسليه إلى المسجد لكن ترددين وتخبرينه بأنك خائفة، ففطرته تقول له: "إن الذي نعلم عنه إنه حفيظ سيحفظنا" فهو سيضع الكلام المناسب في الوقت المناسب وهذا ليس ذكاء أو نباهة إنما هي فطرة سوية تضع الأشياء في مواضعها.

إذًا نحن نملك ثلاثة عوامل، المتصوَّر لو استعملت كما ينبغي نصل للهداية. هو لم يأتِ خاليًا بل معه:

- فطرة سوية.
- وأدوات يكتسب بها المعرفة، وأنا أفسّر له المعرفة.
- ومعه دلالة هداية كونية ودلالة هداية من القرآن.

ونحن نخبره، نقول له: "بهذه الطريقة اقرأ الأحداث: هنا حفظ الله، هنا جبر الله، هنا ستر الله، هنا عطية الله، هنا رزق الله، هنا تناجي الله فيسمعك، وهنا تعصيه فيخذلك، هنا يحلم عليك حتى لو عصيته..." فنحن نقرأ له الحياة، وكل قراءة تقرئينها تقع في مكانها. هذا الكلام نقوله لنفكر ما هي الجريمة التي نرتكبها في تربية أبنائنا؟ في كوننا لا نراعي فطرتهم ولا نراعي أدواتهم ولا نراعي ما أعطينا من أسباب لهداية الدلالة. وفي النهاية يسمع ويرى ما يشغله عني -التلفاز وغيره- ويشغلني عن إزعاجه! فتكون النتيجة أن يتعلم ما يتعلمه الناس: ألا وهو الحروف، يتعلم الحروف في رياض الأطفال وهم يدركون جيدًا أنه لو تأخر في تعلّم الحروف، يمكنه أن يتعلمها، لكنه لو تأخر في تفسير الحياة كما ينبغي فلن يكون قادرًا على تعلمها مرة أخرى كما ينبغي. فهذه كلها مجموعة من المشاكل نشتكيها إلى الله! هذه ليست شكوى للبشر بل تعبير للحال الذي نمر به، والشكوى لله: نسأل الله أن يكشف عنا جميعًا هذه الغمّة!

نعود لأصل المشكلة: نُعطى هبات وعطيات من الله ولا نعرف قيمتها؛ هذا الصغير عطيّة كالصفحة البيضاء تكتبين فيها، سواء كنت أمًا، معلمة رياض أطفال، أيًا ما كنت، هو لك كالصفحة بيضاء، فلو أحسنت العمل لثقلت ميزانك غدًا.

وإحسان العمل يحتاج إلى جهد، وسبق أن تناقشنا في كلام عليًا الذي فيه "أن الحق لا يأتي إلا بالجد" وليس باللعب فأنت تربي؛ إذًا ولا بد أن تكون بذلت جهدًا في هذه التربية، وهذه مسؤولية نسأل الله بمنّه وكرمه أن يعيننا جميعًا عليها ويوصلنا إلى الحق اللهم آمين.

وفي اللقاء السابق تناقشنا في قصة قارون حول المفاهيم التي نربي عليها أبنائنا واتفقنا على أن السن الذي نناقش فيه هذا الكلام بتفاصيله من ٩ سنوات إلى ١٥سنة هذا أنفع سنًا لمناقشة هذه المفاهيم، ودائما القصة لها أثرها في هذا السن وفي كل سن القصة لها أثرها، لكن المقصد أن المفاهيم هنا تحتاج إلى شيء من العمق والبيان.

واتفقنا على أننا لا نريد مردود سلوكي سريع خصوصًا في هذا السن فنحن نريد تغيير للتفكير، وهذا المفاهيم نفسها لسن أقل من ٩ سنوات إلى ١٥ تكون مطلوبة ولكن تكون كأنها مجرد إشارات، فأقل من سن ٩ سنوات، يتحمل هذه المفاهيم ولكنها إشارات وعلى حسب أسئلته، وعندما نصل لتسع سنوات من الضروري أن نتناقش بالتصريح في هذه المفاهيم.

وصلنا سابقًا إلى قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، ولكن قبل ذلك نعيد ما أشرنا إليه في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

اتفقنا أن الفرح ورد في القرآن بصيغتين: مذمومة وممدوحة.

والفرح المذموم هو ما يتصل بالدنيا ويكون مطلقًا ويكون وراؤه مشاعر الأشر والبطر؛ مثلًا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أبواب كل شيء من الدنيا ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[1] يعني بقوا في حالهم حتى وصلوا أنهم فرحوا، لما فرحوا بما أوتوا أخذهم الله.

إذًا الفرح عندما يأتي في القرآن بالدنيا يكون مذمومًا وهو فرح الأشر والبطر، والأشر والبطر لهم مشاعر منها:

- مشاعر الاستغناء عن الله.
- ومشاعر أن الإنسان أحسن من غيره عند الله.
- ومشاعر الكبر في رد الحق والبطر على الناس.

أما الفرح المحمود فقد تكرر في كتاب الله، مثلًا في سورة يونس قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

---

(١) الأنعام: ٤٤.

(٢) يونس: ٥٨.

وفي سورة الروم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ﴾[١] وهذا معناه أن المؤمنين من وصفهم أنهم يفرحون بنصر الله، وأن الفرح بما آتانا الله من فضله سيكون أمرًا واسعًا يتصل بكل إحسان وبكل ممارسة للقيم العليا. ومن فضل الله ورحمته: هذا الدين، هذا القرآن، هذا الإيمان...هذا الذي نفرح به. وعلى ذلك الفرح ليس مقصودًا بنفسه لا ذمًا ولا مدحًا؛ أي لا أتكلم عن الفرح نفسه فأقول: "الفرح ممنوع" وإنما المتعلق به مثال:

إنسان يحب الأنس ويحب أن تدخل عليه مشاعر السعادة، هذا شيء طبيعي لا بأس به، ولكن (بماذا تفرح؟) هذا الفرق بين الناس، ونحن نريد أن نصل معهم -لا نقفز بهم- إلى أن الشيء الذي يستحق الفرح ليس الدنيا إنما كل شيء يوصل للآخرة وستفرح به في الدنيا، أي ممارسات قيمية في الدنيا ستكون مسببة للفرح لأنها ستوافق الفطرة؛ أي إحسان للناس سيسبب الفرح، يأتي بالسعادة، فليس الفرح بذاته هو المذموم إنما (ما هو المتعلق بالفرح؟) إن كان الفرح بالدنيا المذمومة، فسيكون معناها أن همّة هذا الفرحان خسيسة؛ بمعنى فقط همّه أن يأكل ويشرب وينتهي على ذلك، لكن حين يكون فرحه بما يرضي الله سيكون معنى ذلك أن همّته عالية.

ثم انتقلنا إلى قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾،

---

(١) الروم: ٤-٥.

واتفقنا على أن الأمر بـ ﴿أَحْسِنْ﴾ سيكون معللًا بـ ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. إذًا دائمًا سنفكر في إرشادهم إلى الإحسان، أحسن إلى الخلق بمعنى أن يتعدى النفع منك لهم في أي باب؛ فتعلم الناس، تكون أحسنت، تدلهم إلى الطريق، أحسنت، تتكلم معهم حتى يفرج همهم، أحسنت، و (أحسنت) هذه كلمة واسعة شديدة الاتصال بمقاييس الناس؛ ما الذي يسمى (إحسان) عند الناس؟ الإحسان هو ما يسمى (إحسان) ولا يخالف الشريعة. مثال: شخص تائه في الحرم أوقفك في الشارع لتدله على الطريق، وأنت من شاب من أهل البلد، فتتركه ولا تهتم! لماذا؟! أحسن إليه وأرشده كما أحسن الله إليك وأرشدك ولم يجعلك تائها، أحسن له يحسن الله إليك. فالإحسان ليس له صورة معينة، حتى ما تعارف عليه الناس على أنه (إحسان) ولا يخالف الشريعة يعتبر إحسانًا، وميزة الإحسان أنه لا يكون له مردود في الدنيا فالمحسنون لا بد أن تكون لهم نفسية معينة فهم لا يعطون لكي يُعطَوا وعندما لا نربي أبناءنا على هذا التفكير نكون أفسدناهم، فعلينا أن نجعلهم لا ينتظرون حتى الشكر.

واسمع أمنا عائشة -رضي الله عنها- ماذا تقول لفتاتها حين ترسلها بالصدقة للناس؟ تقول لها: "اسمعي ماذا يقولون -من الدعاء- فنقول مثلما قالوا ويبقى أجرنا على الله" فتكون صفة الإحسان هنا أنه لله، فلا نعلمه أن هذا الإحسان لا بد أن يكون مردوده هنا، بل نعلمه أن

هذا الإحسان نطلب به ما عند الله، وهو نوع من أنواع الشكر على إحسان الله، فنقول له: "أحسن كما أحسن الله إليك" إذًا هذه من القيم العليا المطلقة، "ستُحسن للمؤمنين وللكافرين وستُحسن بوجوه متعددة للإحسان مادامت هناك فرصة للإحسان وليس شرطًا أن تحب من أحسنت له" وهنا تظهر مشكلة قد تجد البنت تحسن لصديقتها خاصة، فتكون بذلك ما تعلمت الإحسان؛ لأنها تكون تعاملت بما يوافق الهوى، إنما عليها أن تحسن مطلقًا دون أن تكون هناك علاقة؛ ولذلك عندما نتكلم عن أحد له علاقة بالكفار -جاره مثلًا يهوديًا أو نصرانيًا أو غيره- فنقول: "لا يُشترط في الإحسان أن تحبه، أنت تحسن إليه والإحسان منفصل عن مشاعر المحبة" فلو أحسن الإنسان للأشخاص الذين يحبهم فقط فهذا ليس إحسانًا، هذا متابعة للهوى، لكن لو كان طبع الإنسان الإحسان لكل أحد فالأقرباء أولى بالمعروف.

نأتي لنقطة مهمة وهي: من الممكن أن يحسن الإنسان فيُساء له، فأنت تحسن وتنتظر الأجر من الله لكن عندما ينقلب عليك الناس ويسيئون لك غالبًا يُفك حزام الهدوء، فتقول: "ما انتظرت منك شكرًا، ومع ذلك تسيء!" وهذا تجده كثيرًا عند الصغار؛ لأنهم يتصورون أنهم أصحاب فضل، وهذه مسألة واضحة في المناقشة؛ من سنّة الله لعباده: أنه كلما ترقى الإنسان في أعمال الإيمان كلما اختُبِر صدقه، أي: أنت الآن تبدأ في أعمال الإيمان والله يساعدك ويعينك عليها وتستطيع أن

تحسن وتستطيع أن تعفو -هذه بداياتك في أعمال الإيمان- ثم تثبت قدمك وتقوى ساقك فيها؛ فيختبر الله صدقك، فأنت تحسن وتقول: "الله يحسن إليّ" ثم في منتصف هذا الطريق يأتيك من يسيء ليختبر صدق إحسانك؛ قوة إحسانك التي في داخلك، فهل ستبقى تحسن أم تخرج في النهاية وتقول: "أنا جربت الناس وعرفتهم، لا يصلح لمعاملتهم إلا من يمنع خيره عنهم "؟ معنى ذلك أنك قد تحسن وتثبت قدمك في الإحسان وبعدما تثبت قدمك، يختبرك الله، وعندما تنجح في الاختبار وتكمل الإحسان يزيل الله عنك إساءة المسيئين. هذه سنة الله؛ أنه يعين العبد على التوبة، يعين العبد على الإحسان، يعين العبد على الطاعة، فاذا قوي قلبه فيها؛ اختبر صدقه، فاذا نجح في الاختبار -بأن لا يترك العفو والإحسان- يزيل الله عنه الاختبار، فيذهب من كان يسيء له.

ماذا سنفعل في مفهوم الإحسان؟

لا بد أن نناقش هذا المفهوم مع الصغار كثيرًا لأن هذا المفهوم يبقى إلى أن يموت؛ يحتاج بيانه والمفترض أن يسعى إلى أن يكون حقًا من المحسنين، لكن كثيرًا من الناس يحسن في بداية حياته وعندما يكبر تصيبه عقدة من الناس ويقول: "أنا تجربتي تقول: لا أحد يستحق الإحسان، والناس تحسن إليهم ويسيئون إليك" الجواب: إن الله يختبرك فلا ترسب في الاختبار، دع عنك التفسيرات الخاطئة للتجارب،

فلا يمكن أن يكون محسنًا والله لا يحسن إليه لأن الله يحب المحسنين، فمعنى ذلك أنك حتى لو حصل لك خلاف ما تنتظر، فكأنك تُختبر في صدقك أنك لا تنتظر منهم شيئًا، نحن في البداية نقول: "نحن نحسن ابتغاء مرضاة الله"، بمعنى: نحسن وننتظر الأجر من الله، هل أنت صدقًا تحسن من أجل الله؟ كيف سيُختبر هذا؟ يسيء لك من تحسن إليه. اكتشف نفسك ماذا ستفعل، ومنه يظهر صدقك في هذا.

هذه الترجمة هي التي تحدثنا عنها في بداية اللقاء؛ أن أذنه تسمع وعينه ترى ونحن نفسر، فهو سيقرأ مثل قراءتنا للحدث وسيقع في قلبه ما نقوله أثناء الحدث، هو في البداية يحتك بالمواقف فيقول لك: "الناس ليسوا مثلما ذكرت، الناس مختلفون" وكلما كنت صامدة في بيان الحق كلما وقع في قلبه يقينًا.

➢ "قيمة الإحسان"

قيمة عليا من القيم المهمة التي نحتاج أن تُكرر على الصغير ونناقشه فيها بالتفصيل، ويبدأ النقاش فيها من سن أربع سنوات، حينئذ نقول له: "أحسن إن الله يحب المحسنين"، وكلما كبر، كلما اتسع المفهوم واتضحت مجالاته، وكلما بيّنا له "أنك قد تجد في الطريق كذا وكذا من العقبات" إلى أن يستقر قلبه على أن الإحسان خلق لا يمكن أن يتخلى عنه مهما حصل له من مواقف، وليُعلم أن هذه الصفة -الإحسان من أجل الله- إذا فُقِدت كثيرًا ما يدخل الإنسان في

مراحل الاكتئاب كلما تقدم به العمر؛ لأن النفس من أسباب هدوئها شعورها أنها تعامل الله ولا تنتظر شيئًا من أحد، وعندما لا يحصل هذا يكتئب الإنسان في آخر حياته يكون عنده تاريخ يقول: "أنا أحسنت لهذا وما فعل لي، وأعطيت هذا ولم يقدر عطاياي، واكتشفت إن هذا ليس أهلًا للإحسان، وهذا بذلت له حياتي وهو لا يستحق أن أعطيه" ويبقى تاريخًا في عقله يكرر هذه المسألة على نفسه، وكلما تقدم في العمر كلما ازدادت عنده مشاعر أنه أخطأ بالإحسان؛ فيصاب بالاكتئاب ويبطل عمله الذي مضى!

فالمفترض أن تبقى هذه القيمة ويُعلم تفاصيلها وتُعرف المعارضات التي تحصل فيها ويفهم أن الله يختبره وأنه حين يحسن لا يبحث عن مكانته عند الناس؛ لذلك لا بد أن يأتي الجزء الثاني المهم وهو أن نأتي له بالنصوص مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]. أنت حين تُحسن سيحبك الله.

إلى الآن ذكرنا ثلاثة مفاهيم:

المفهوم الأول: مفهوم الفرح.

المفهوم الثاني: ابتغاء الدار الآخرة فيما آتانا الله.

المفهوم الثالث: الإحسان.

---

(١) البقرة: ١٩٥.

وكلها مفاهيم مهمة وتظهر أكثر ما يكون في سن من ٩ إلى ١٥ عام، لكن مفهوم مثل مفهوم (الإحسان) هذا لا بد أن نناقشه من بداية التنشئة، من سن ٤ سنوات و(الإحسان) كلمة لا بد أن تُتداول بيننا وبينهم.

﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

سنناقش أولًا: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم سنناقش منفصلًا: (يحب) و(لا يحب)، ورد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

هم ما قالوا له: "لا تفسد في الأرض"، بل قالوا: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لا تكن إرادتك أن تقع في الفساد، وهذا معناه أن الإنسان لكي يكون عبدًا صالحًا لا بد أن تكون إراداته خالية من إرادة الفساد، فكثيرًا ما يحكي الصغار -وهم يحكون ببراءة ليظهروا ما في داخلهم- أنهم يتمنون أن يصيب أصحابهم الضر لأنهم آذوهم، أو تأتي بعد سنة وتخبرك أنها سعيد لأن صديقتها حصل لها الموقف الذي عيّرتها به في السنة الماضية! هذا امتلاء بالأحقاد، فهم لا يدركون أن قلوبهم بهذا ستفسد، لا يشعرون بقلوبهم، لا يشعر أنه عبارة عن قلب، فإذا ترك قلبه يخرب بإرادات الفساد سيبقى دائمًا خربًا لا يتمنى إلا الشر ولن ينزعج أحد غيره! لأنه من سيخرب قلبه.

إذًا عند قولنا: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأرض﴾ هنا سنركز على الإرادات القلبية، فمن سن ٨ سنوات نبدأ نقول: "إن قلبك عليه الحساب، الله ينظر إلى قلبك، وإذا أراد قلبك الخير؛ الله يأتي له به ولو أراد الشر فلن تجد إلا طريق الشر، ولو حقدت ستجد نفسك لا تسكن أبدًا إلا لو طُرد عن قلبك الشر" فـ(تبغي) بمعنى: تريد، تتمنى وتفكر وتخطط ويكون من آمالك، فتكيد بالناس! مثلًا هي لا تحب معلمتها فتفكر وقتًا طويلًا وتقول: "إن شاء الله يحصل لها كذا وكذا!" وهي ترى أنها مشاعر عادية! ويكبر هذا الشعور معها لدرجة أن تكبر وقد تغضب من أحد زميلاتها فترجع بيتها وتفكر أنها ستفعل بها كذا وكذا...وتكلم نفسها! وهذا كله من الإرادات التي تركها الإنسان تكبر وتنمو حتى أفسدت القلب، وهذا ما يسمى بـ "الوسواس القهري" وهو: ترداد فكرة رغمًا عنك والتفاعل معها. نحن كنا نظن أن "الوسواس" فقط أن الشيطان يقول لك: "ما توضأت" فتتوضأ، يقول لك: "ما صليت جيدًا" فتعيد الصلاة، صحيح إن هذا نوع من أنواع الوسواس، ونوع آخر تصوريه، انقلي ما ذكرناه للأفكار وللأحقاد والمشاكل؛ تجدين نفس النتيجة، نفس الموقف الذي صار بينك وبين زميلتك، بينك وبين معلمتك، يبقى يُكرر ويُكرر وتنفعلين معه، هذا وسواس من الشيطان، وأنت لو سُئلت: "متى دخلت بيتك، ماذا أكلت؟" لن تتذكري! لماذا يُعرض عليك

الموقف بتفاصيله؟ لأن الشيطان يذكرك بذلك، وتبقى رهنه حتى يثقب قلبك ثقبًا! بمشاعر الحقد، بمشاعر الكيد، بمشاعر الكيد، الحسد...

فقارون ما قالوا له: "لا تفسد في الأرض" بل قالوا: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يصبح قلبك مكانًا لإرادة الفساد وليس للفساد، فحين تكون إرادة الفساد ممنوعة؛ فسيكون الفساد ممنوعًا بعده، فالمشكلة هنا أننا نقول لأنفسنا إن الله لا يحاسبنا على ما في قلوبنا، وهذه في الحقيقة أزمة وشبهة عجيبة، قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ.»[1] فأين الكبر؟ في قلبه. وكيف شعر به؟ شعر بقلبه، ولم يقل الرسول "لا يدخل الجنة من فعل الكبر"، قال: «مَن كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ.» إذًا كيف لا يحاسب قلبك على ما فيه؟! الشبهة أننا نظن أن أواخر سورة البقرة تدل على أن الإنسان لا يحاسب على ما في قلبه، ولكن الحقيقة أنها تدل على أن الله قد عفا عنّا في الخواطر الغير مستقرة لكن الذي يستقر أنت محاسب عليه، فلو علم في قلوبكم خيرًا لآتاكم، أي أنك ستُحاسب على ما في قلبك، والنبي قال: «إنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وأَمْوالِكُمْ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأَعْمالِكُمْ.»[2] فكيف يقول النبي ذلك، ثم نقول إن الأفكار التي تمر في الخواطر وتبقى ثابتة وكلما

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

تذكرت فلانة تمنيت أن الله يفعل بها كذا وكذا! كيف نظن أن هذا كله ليس مما نحاسب عليه؟! فهذا كله سنُحاسب عليه ولكن الذي لا نحاسب عليه هو الخاطرة التي لا تستقر في قلبك، لكنك ستُحاسب عن أمراض القلب؛ كـ (الحسد) وهو: تمني زوال النعمة عن الغير، (التمني) هو عمل قلبي و(الكبر) موجود في القلب و(العجب) موجود في القلب و(البغي) أيضًا من الأمراض الموجودة في القلب وكلها أمراض تحاسب عليها؛ فالعبد يحاسب على الإرادات المستقرة فهو طوال الوقت يكيد ويفكر أن يُفسد ولو وجد كذا وكذا لفعل...بهذا يكون قلبه قد فسد.

فماذا نفعل مع هذا الصغير الذي نربيه؟ لابد أن نرفع قيمة القلب ونرفع قيمة الإرادات المستقرة ونخوفه منها ونبين له أنه عندما يكون طبعك أن تبقى تحقد أو تكيد أو تريد الفساد أو تتمنى أن يقع هذا في مهلكة، فهذا معناه أنك قد حكمت على قلبك بالفساد، وهذه المشاعر تجدينها كثيرًا في الشباب خصوصًا عندما تنزلق أقدامهم في مصيبة، تجدهم لا يريدون أن يكون هذا الشخص طاهرًا أحسن منهم، فيجروه!

مثلًا مجموعة بنات عندهم علاقات محرمة، وبنت أخرى في حالها فكيف يتركونها في حالها؟! يظلون يقولون لها: "أنت غير مقبولة ولو كان لك كذا لكان كذا" ويجرونها! هؤلاء مثل لمن يبغي الفساد في الأرض ويوقعون البنت في الفساد، ومثله في المخدرات وفي أشياء كثيرة في

السلوكيات، فأنت أحيانًا تكونين مطمئنة أنك وضعتِ ابنك أو ابنتك في مكان أمين ثم يأتي شخص عنده إرادة الفساد فلا يهدأ حتى يُفسد! فهذا معناه أن الإرادات خطيرة وليست بالأمر السهل، الذي يهمنا الآن أن ولدنا لا يريد الفساد وأن يحذر ممن يريد الفساد، وتفهم أن هناك أناس يريدون الفساد، وهذا له أمثلة كثيرة لا نريد أن نتطرق لها ومن المؤسف أن السجون تحمل الكثير من الشابات البريئات ولكن جاءهم من يبغي الفساد في الأرض، فهذه الزميلة لن تسقط وحدها فتجعلهم يسقطون معها في المخدرات وغيرها، فأهم شيء عندما نربي أن نفهم المتربي أن هناك أناس يريدون الفساد؛ فأنت لا تكن ممن يريد الفساد بكيد، بمكر أو إيقاع الناس في المشاكل "كالمقالب"! فهذه المقالب ممنوعة شرعًا، ليس من ديننا أسلوب الغدر، أو أن تكون في حالة جيدة ثم أخيفك، ممنوع عندنا في الشريعة أن نشير لأحد بسكين، هذه ثقافات أُخذت من الغرب وطبقناها في مجتمعنا وأصبحت ممتعة! قد يموت من أمامك وتستمتع! هذا شيء عجيب! وأنا الآن سأضرب مثلًا حقيقيًا ضربته لي فاضلة في موقف حقيقي، تنافس أصدقاء على من أكثر من يفعل شيئًا مخيفًا، فاتصل أحدهم على والدة وقال لها: "مات ولدك!" ماذا تريد؟! أكثر موقف يخيف! من أين لكم بهذه الثقافات؟! كل هذه الأفعال داخلة تحت إرادة الفساد في الأرض، كلها أنواع من الإفساد بصور متعددة، فنحن لا بد أن نضع حدًا لكل شيء، فأنت لا

تبغِ الفساد ولا تقبل أحدًا تسير معه يبغي الفساد، فالذي يتكلم عن الخير ويحب الخير ويحب الإحسان، هذا الذي يصلح أن تصاحبه، أما الذي يحب الشر ويشمت في الناس ويتمنى أن يموت هذا وهذا تُحطم سيارته، فلا تصاحبه حتى لو ما حصل منه شيء؛ لأنه لمجرد أن قلبه يحمل الشر للناس فسيجرك للشر ولابد؛ لذا لابد أن نفهم أن من مسؤولياتنا لفت نظره إلى قلبه وإراداته؛ "ماذا تريد وماذا تبغي؟"، "عندما تكون على فراشك تفكر في ماذا؟ هل في الصلاح والإصلاح؟ أم تفكر في التافه من الأمور؟ أم تفكر في الإفساد؟ فينبغي أن تحاسب نفسك على الذي يخطر على بالك" ونحن لا نقول إن الذي يخطر على بالك ستحاسب عليه، ولكن نقول: "إن الذي يخطر على بالك كأنه يقول من أنت" ، "هذه الأفكار التي تتجمع كأنها تقول من أنت، وهذه الأفكار الخفيفة التي تمر إذا تركتها تكبر فستصبح إرادات مستقرة وكلما أردت أن تفعل ستجد نفسك سائرًا على نفس الإرادات" والحقيقة هنا كلامًا طويلًا للمتخصصين في "كيف تحصل الجرائم المنظمة التي يكون فيها الإنسان كأنه مبرمج؟" كيف يحصل ذلك؟ يكون طوال الوقت يفكر في أن يأخذ فتاة من هذا السوق ويخرج من هذا الباب ويخطفها ويضعها في السيارة! يقول لنفسه ذلك وهو على فراشه يخطط وهذا كله يتحول ليصبح أسلوبًا في التفكير ثم بعدها تحصل الجريمة بنفس الطريقة! نسأل الله أن يحفظنا جميعًا، هنا المشكلة

تبدأ من عند: "ابغِ ما تبغي بقلبك"، "دع قلبك مسرحًا لأي شيء" وهذا يساوي عندنا تصور "إن الله لا يحاسبنا على ما في قلوبنا" من قال لك هذه الشبهة؟! بل إن قلبك هذا، الله ينظر إليه، فكيف لا يحاسبك عنه؟! إنما لا يحاسبك على الخواطر الغير مستقرة؛ أي التي لا تستطيع إدراكها، يعني تمر، تفاجئك لا تستقر، هذه لا تحاسب عليها، أما التي تفكر فيها ليلًا ونهارًا فهي التي تحاسب عليها. فالكبر والحسد والعجب مكانهم القلب وأدلة ذلك كثيرة.

المقصد هنا: لفت نظر الطفل الذي أربيه إلى قلبه ومكانته وثقله وهذا يصلح من ٤ سنوات.

وهناك تجربة لطيفة مع أطفال من ٤ إلى ٦ سنوات وضعوا حديث: «تُعْرَضُ الفِتَنُ علَى القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّى تَصِيرَ علَى قَلْبَيْنِ، علَى أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرض، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ.»[(١)]

وضعوه بين أعين الصغار، وصاروا يكررون عليهم: "تخطئ، تذنب: تُنكت في قلبك نُكتة سوداء"، "تُحسن: تُنكت في قلبك نُكتة بيضاء" فصار أسلوبًا في التفكير وأصبح حين يخطئ يسأل: "هل نُكتت نُكتة

(١) أخرجه مسلم (١٤٤).

سوداء؟" ومثل هذا الأسلوب يأتي بنتيجة؛ فالمقصد أن الطفل يحتاج منك أن تلفت نظره إلى قلبه، وتكلمه عن "النُكتة البيضاء" و "النُكتة السوداء" والأطفال يقبلون بأي فكرة تعطيهم إياها ويتفاعلون معها وعندما تكون حقيقة من النص لا بد أن تقع في قلب الفؤاد، ويعرفون جيدًا أن أي "قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ" فهي معلومة سيفهمها ويتعايش معها ثم سيتفاعل معها، وغدًا قد تذهب نفس المعلومة ولكن الاهتمام بالقلب لا يذهب وملاحظته لا تذهب وعندما يكبر ويتذكر الحديث ربما لا يتذكر أنه كان يفهم نقطة بيضاء ونقطة سوداء، لكن يبقى يشعر أن قلبه له أهمية، وغالبنا لم يدرك أن قلبه له أهمية إلا بعد فوات الأوان وتقدم العمر! عرفنا أن مدار العمل كان على قلوبنا، وكنا نتميز في مواقف تكون أحوالنا جيدة لأن قلبنا كان جيدًا وفي مواقف نفعل نفس الفعل لكن مقاصدنا سيئة فما نجد نتيجة! ما كان يلتفت نظرنا؛ لذلك كم حصل من الفساد!

فنحن نوفر على أبنائنا هذا الكلام ونلفت نظرهم إلى قلوبهم ونقول لهم: "لا تبغِ الفساد في الأرض ولا تسِر مع باغي الفساد في الأرض" والتمييز سهل، فالذي يبغي الفساد في الأرض؛ هذا يحب الشر، يتكلم عن الشر، يتمنى الشر، لا تجده يحب الصلاح ولا يحمل هم المسلمين ولا تجده يحب أحوال المسلمين، فيرى أحدًا يمر من جانبه يمتلك سيارة فلو استطاع أن يعلن ما في قلبه من حسد لفعل، لكنه يظل

يقول: "عندهم أموال!" ويتكلم بكلام لا يخرج إلا من أهل الطمع والشر، كل هذا لا يليق! هذه أرزاق قسّمها الرزاق -سبحانه وتعالى- وفي جنات النعيم غنوة عن كل متاع الدنيا نسأل الله أن يجعل قلوبنا وقلوب ذرارينا ملتفتة إلى ما عند الله، اللهم آمين.

نأتي الآن إلى شيء مهم وهو: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾

في هذه القصة وردت مرتان: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ وهذه أحد أساليب التربية المهمة؛ من أساليب التربية المهمة أنه بعد أن أربي جيدًا "أن الله هو المحسن وهو المعطي وهو المنعم" بعدما أبيّن نسبة النعم إلى الله ويبقى هذا متكررًا، يعني نسبة النعمة لا يخلُ منه وقت، ونحن نفعل هذا الفعل لابد أن نبدأ نميل معهم إلى أن يعرفوا أن

- هناك شيء يحبه الله.
- وهناك شيء لا يحبه الله.

وكل مرة يزيد هذا على حسب المواقف.

فالمطلوب منا أن نجمع من كتاب الله -من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن- كل كلمة "لا يحب الله" في القرآن وكل كلمة "يحب الله" في القرآن واجعليها أمامك كأم ومربية أمام عينيك، واستعملي كل واحدة في مكانها المناسب؛ وجدتيه يحب الفساد أو يخرب في المنزل أو في الفصل، قولي له: "إن الله لا يحب الفساد" قولي له ما يحب الله وما لا يحب الله، لكن بعدما يشعر أن محبة الله شيء مهم؛ "لو أحبك الله

سينعم عليك ويعطيك ويكرمك" فيدرك أن النعم كلها بيد الله وأن الله يكرم خلقه وأنه لو أحب عبدًا لفعل له، ثم نقول له: "الله يحب كذا ولا يحب كذا"

فالمحبة شيء مهم لا بد أن يفهم هذه الصفة عن الله وهي "أن الله يحب أعمالًا ولا يحب أعمالًا" وهذه سهلة جدًا في مسألة الترغيب والترهيب؛ فكثير ما يُسأل هذا السؤال: "هل نذكر لهم الجنة والنار؟" فنقول: نعم، الترغيب والترهيب شيء مهم وله طرق لكن أول الطرق وأهمها أن نقول لهذا الصغير إن الله يحب كذا ولا يحب كذا ونكرر عليه ذلك ثم نتقدم إلى أن يدرك التفاصيل، ننتقل للآيات التالية:

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾

كل ما مضى كان نصح القوم له، نأتي الآن إلى رد قارون، حيث أنه رد بردين:

رد قولي ورد فعلي:

- **القولي**: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾.
- **الفعلي**: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾.

وهذا أسلوب الغطرسة والبطر والفرح؛ يرد الحق ويغمط حق الناس، نبدأ أولًا بما قاله:

﴿إِنَّمَا﴾ إنما هذا أسلوب حصر.

﴿أُوتِيتُهُ﴾ كما هو واضح أنه فعل لم يسمَ فاعله -مبني للمجهول- هو يدرك أنه أوتي هذه النعم، نفس فعل "آتيناه" ورد سابقًا لما قال قومه له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾.

لاحظوا: ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ ، ﴿آتَاكَ﴾ ، ثم هو يقول: ﴿أُوتِيتُهُ﴾.

القوم يعرفون أن الله آتاه أي أن الفعل الأول كان واضحًا أن الله -عز وجل- هو الذي آتاه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ فهو فعل مسند لله.

ثم يأتي قومه فيقولون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ﴾ فيكون واضحًا بالنسبة لهم أن الفعل مسند لله.

ثم يأتي هو يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

فيعترف أنه جاء إليه لكن كأنه يقول: "من أتى به مجهول!" ثم يقول: "أوتيته من أي جهة أوتيته لكن لأن عندي علم!" وهذا هو الكبر بالعلم يعني ﴿أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾. أي "ما وجد عندي ليس لأن الله أعطاني إياه، إنما أوتيته من أي جهة أوتيته فلأن عندي علم" وهذا هو الفخر بما رزق وعدم نسبته إلي الله وهذا هو الخلل الحقيقي -عدم نسبة النعمة إلى الله- فانظري الجواب، الله يقول: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ فقارون قال: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي عنده علم، سواء كان على علم بوجوه المكاسب، مثلا كان تاجرًا ناجحًا يعرف كيف يكسب، سواء هذا المعنى أو أي معنى، المهم أنه نسب لنفسه العلم، فكأنه يقال: "ما أفسد هذا

العلم إن كان عندك علم!" فيقال له: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ أي أن هذا العلم الذي من المفترض أن يعلمه في حاله.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ أي جاء الهلاك لمن كان قبله،﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ معناه أنهم كانوا أكثر منه، هو كانت مفاتيح كنوزه تنوءُ بالعصبة أولي القوة والذين كانوا قبله كان لهم صفتان:

- أشد من جهة القوة.
- وأكثر جمعًا من جهة المال.

ومع ذلك أهلكهم الله. إنه الانخداع، فهذا خُدع بكون عنده مال فقال: "المال أتاني عن علم" الآن تصير المشكلة في العلم؛ فهذا العلم الذي أُعطيه، وهم كانوا يقولون في شرح هذه الآيات "إنه قد أعطي علم الكيمياء" وهذا العلم يعتبر بالنسبة لهم من العلوم العجيبة حيث أنها تحول الأشياء عن خصائصها فتعطي الأشياء خاصية جديدة فهذا العلم كان له مصالح وفوائد عندهم، فكان يقول: "إن هذا المال ما جاء إلا بتعب، أي أنا تعلمت وعلمت ووصلت!" فانظر كيف أن العلم مذموم في حقه، وفي حق كل من يفكر بطريقته، وعلى ذلك هناك كثير من العلوم ممكن أن يكتسبها الإنسان وتكون بالنسبة له مضرة، كثير من العلوم التي يكتسبها الإنسان وتسبب له الفخر على خلق الله تكون مضرة، وهنا كلام مهم للوالدين: لهذا السبب لا ينبغي لنا أن نتمنى على

الله أن يكون أبناؤه عندهم علم الطب، الهندسة فقط، لا يتمنى العلم بعينه، إنما يتمنى العلم الذي يكون صاحبه مباركًا أينما كان، يعني ما نتمنى "طبيب" مجرد لأنه قد يُميت تحت يده مئات من الناس، وممكن هذا "المهندس" المجرد يفعل في الناس ما يفعل، وهذا "المحامي" يخدع الناس، وهذا الذي له مكانة يفعل كذا! نحن نريد شخص في أي وظيفة يكون وصفه "مبارك"؛ لذلك عيسى -عليه السلام- وصفه الله في سورة مريم إنه مبارك أينما كان؛ لذلك نحن نريد أي وظيفة، أي علم يكون صاحبه مباركًا فليست المكانة الاجتماعية ولا العلم هو الذي ينفع صاحبه، الذي ينفع صاحبه أن يكون مباركًا، هناك أبناء عندهم طموح شديد يمكنهم أن يتخطوا به حتى والديهم ويمكنهم من دهس كل من يقابلونه، طموح شديد يجعلهم يحتقرون من حولهم، وطموح شديد يجعلهم بخلاء على أنفسهم وذراريهم وعلى أهليهم، وطموح شديد يجعلهم يقاطعون الناس ويعيشون للدنيا وأهلها، طموح شديد يجعلهم لا يسيرون إلا مع طبقة معينة، ولا يعاملون أي أحد تحت هذه الطبقة، فماذا نفعل بولد عُلّم وبُذِل فيه الجهد وفي النهاية يكون نكبة علينا وعلى المجتمع! ولا تعتقدي أن مثل هذا سيكون نافعًا في مكانه، أبدًا فمنزوع البركة لا يمكن أن ينفع في أي مكان.

فالمقصد الآن أن العلم ليس للعلم ولذلك قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ أي: لو علِم أن الله قد أهلك من قبله من هو أشد منه قوة وأكثر

جمعًا، لما أوصله علمه إلى ما كان! أبدًا، فانظري إلى هاتين الكلمتين اللاتي تكررا:

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾، الله يقول: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ إن كان عنده علم لعلم هذه الحقيقة.

➢ ما الفائدة هنا فيما يخص تربية أبنائنا؟

هناك حقائق مهمة يجب أن يعلمها أبناؤنا وأسس من العلم يجب أن يعلمها، تسبق كل علم، تسبق كل تخصص، وأهم هذه العلوم ما يعرفه عن صفات الله، فقد قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ ما علم عن الله وهذه أزمته فلو عرف من هو الله لما قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ ولا قال: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾، لو كان يعرف من هو الله لما تكلم عن نفسه، وهذه أزمة الآباء والأبناء؛ أن القوم لا يعرفون الله فحين ينقص عليهم رزق لا تجدهم يرضون عن الله ولا يطلبون من الله ولا يجعلون النقص وسيلة لكمال الإيمان، لماذا تنقص عليك الأرزاق؟ هل تظن أن الله الذي خزائنه ملأى ويده سحاء بالليل والنهار، هل تظن أنه يبخل عليك؟! أبدًا، لكن أنت ماذا تظن بربك؟ تظن أنه يحبس عنك لكي تأتي الطاعات فالحاجات تولّد الطاعات، أنت تحتاج، قال تعالى في الحديث القدسيّ: «يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَن أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي

أُطْعِمْكُمْ»[١]. أي أمد لكم الأسباب فتأخذوا الأسباب فتطيعوني، تعلم أن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء.

إذًا أين الازمة؟

الأزمة أن الناس يتعلمون أصنافًا وأصنافًا من العلوم، والأبناء يُدربوا على جدول الضرب ويُدربوا على الجدول الدوري وهكذا وبعدها الذي يدخل معه قبره في التوحيد والأسئلة الثلاثة: "من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟" لا يوجد أحد يناقشها، ونحن نعيش طوال الحياة لنعرف من ربنا ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ﴾ هذا ما نحتاج أن نتعلمه والعلوم الأخرى تأتي بعدها وتأتي لاحقة وتأتي في الوقت المناسب، لكن لو جاء مثل هذا وصار عنده مال مثل قارون فسيهلكه هذا المال! فنحن نحتاج أن نعلمه من هو الله، إذا كان الوالدان لا يعرفان من هو الله ولا المعلمين يعرفون! فقد خبنا وخسرنا! لابد أن نعرف من هو الله لكي نقول طوال الوقت: "يرزقنا، يجبرنا، يعطينا، يسترنا، يوفقنا، يحفظنا" أنت تعيش تحت ظل أسمائه، وتعيش في حياتك ولا تعامل إلا إياه ولذا النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: « حسبيَ اللهُ وكفَى، سمِعَ اللهُ لمن دعا، ليس وراءَ اللهِ مَرمَى» فلا ينبغي أن نفكر في أحد وراء الله، فكيف أكون لا أعرف الله وصغيري لا يعرف الله!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

- إذًا من أصول ما يُعلّم الصغار: أن يتعلموا عن الله، والمسألة تبدأ من عند الوالدين يتعلمون عن الله، وفي كل مناسبة يعرفون الصغير بالله.
- والصغير هذا من سن أن يفهم الخطاب ويرد الجواب، ليس ٤ سنوات، بل من بداية ما يفهم الخطاب ويرد الجواب، تبدئين بتعليمه عن الله.

ولكل مقام مقال والمسألة تحتاج إلى استعانة وتبسيط وبيان، لا أن تعطي له محاضرة، لكن تقولين ما تعيشينه، المواقف التي بينك وبينه كثيرة وتنطق بـ "من هو الله" فنحن نرى آثار صفات الله واضحة في الحياة لكن تحتاج إلى عين تعرف كيف تقرأ أفعال الله، وهذه هي الأزمة أن نعرف كيف نقرأ أفعال الله.

ثم يقول الله -عزَّ وجلَّ-:

﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

المعنى: أن المجرمين عندما يُؤخذون بعد إجرامهم لا تسأل عن ظواهرهم أو بواطنهم فالله أعلم بهم قد يدّعون ادعاءات لكن الله يعلم ما في قلوبهم.

الآن هذا رده القولي؛ قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ورأينا فعل "الإتيان" كيف تكرر بصيغ وأتي إلى حده فكان كأنه يشهد "من الذي يعطيه" وهذه هي المشكلة

- لو كان الصغير يجهل من أعطاه سيكون فيه شبه بقارون.
- لو لا يدري من آواه وكساه سيكون فيه شبه بقارون.

فلابد أن يعرف من أعطاه ومن آواه ومن كساه ومن الأخطاء التي نفعلها خصوصًا مع عمل المرأة نسأله: "من اشترى لك هذا؟" يقول: "أمي، أبي" صحيح، فمن حيث الشراء نعم، ولكن من حيث الرزق؛ الله رزقنا، فالصحيح في مثل هذه المواقف أن كلما تكلمنا عن المرزوق -العبد الذي يُرزق- نذكر الرزاق، وقد كان أهالينا فيما سبق يسمون الأماكن التي يخزنون فيها الطعام "بيت الأرزاق" والطعام يسمى "الأرزاق" فالقوم يدركون أنها أرزاق ولا ينسبونها لأنفسهم.

فلا يخرج الصغير ولا يعرف من أطعمه وكساه وآواه ونجاه لأنه سيشبه قارون في ذلك.

الآن نرى رد قارون الفعلي وهي:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾

هذا رده الفعلي: الأشر والبطر، لن نناقش فعل قارون، المهم عندنا قول الذين انقسموا على قارون:

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

هؤلاء قوم ليس عندهم ما عند قارون لكن عندهم مشكلة وهي كثرة التفكير فيما عنده وكثرة التفكير بالشيء تولد تعلق القلب به، وإذا تعلق القلب بالشيء يصبح رهينه والحياة وجمالها متعلقة بهذا الشيء،

فكثرة التفكير بالشيء تسبب التعلق حتى أن الإنسان يصل إلى الخضوع للشيء؛ ولذلك كان التفكر عبادة لان كثرة التفكير في الشمس التي تظهر كيف تخرج هذا كله يجعلك ترتبطين بالله يجعلك تنذلين لله، كثرة التفكير في الشمس والقمر والأرزاق والعطايا تأتي بالخضوع والتعلق لذلك كان التفكر عبادة وإذا كان التفكير فيما عند الله يصير التفكير فيما عند الناس يسبب الانحراف ومن أجل ذلك قال الله عنهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي الإرادة والتفكير، هم لا يمتلكون شيئًا ولكن قلوبهم متعلقة بالدنيا فقالوا:

﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

فتصوري أبناءنا في هذا الموقف وقارون هذا قد يكون شخصًا أو دولة أو هيئة، تخيليه أي شيء عنده دنيا: الناس ينقسمون إلى كم قسم حوله؟ ينقسمون إلى قسمين، انظروا إلى كلمات الإعجاب والانبهار بالغرب والشرق ويأتي ما يزيدهم إعجابًا وانبهارًا يقولون: "عندهم وعندهم..." وكل الأوصاف التي تصف الدنيا، يقولون: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فعندما تكون الدنيا هي المرادة ويكثر التفكير فيها ويتابع الناس الذين يعرضون أحوالهم ويعرف تفاصيل حياتهم ويجد أنهم أحسن منه حالًا، فهذا يساوي أن يدخل تحت هذا الصنف الذي تمنى حال قارون، يعني كأنك تجد الحضارة الشرقية أو الغربية هي قارون والناس قسمين:

- قسم يريدون الحياة الدنيا يقولون: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾.

فيقول لك: "يا ليتنا نهاجر إلى كذا وكذا من الأماكن" وهو يكاد يتفكك من الإعجاب والانبهار بكذا، فهذا صفته أن الدنيا تجري في قلبه. القسم الثاني:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ فهذه هي القضية لو كان عنده علم لكنا علمناه نقطة نقطة كالدواء إلى أن يصبح غذاء، فما كان يرى أن الدنيا خير من الآخرة، وبالنسبة للواقع فالواقع مرير، الواقع كأن الناس غالبهم منحازين لـ ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وطوال الوقت يقولون: "ما المانع؟ والشرع لا يمنع من الدنيا" فنقول: "لا يمنع من الدنيا، لكن لا يمكن أن نعتبر أن صاحب الدنيا ذو حظ عظيم ولا تعتبر أن كفة من معه الدنيا هي الكفة الرابحة واقرأ جيدًا بماذا يُفرح وأي شيء يجب عليك أن تهتم به؟" ثم إن الرزق هنا أو هناك سيكون سواء، مشكلتنا عدم تصور أن الرزق سواء، إن الله سيعطيك، ترضى يرضيك ويزيدك ويمتعك ويجعل عندك من اللذات ما يجعل، وإذا لم ترضَ حتى لو كنت أينما كنت تبقى ذليلًا مهانًا؛ ولذلك ﴿قَالَ الَّذِينَ

أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ لكن لمن؟ ﴿لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾.

طبعًا هذه كلها مفاهيم ولكننا نريد أن نخرج بالمفهوم الأساسي: أن الإعجاب والانبهار ما هما إلا صفة للقوم ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ، لا يوجد أحد يلمّعهم تلميعًا إلا ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ، ولا يقل أحد: "أنا أريد دنياهم ولا أريد ثقافتهم" أبدًا لا يمكن أن يحصل هذا، إنما إرادة دنياهم يلحقها إرادة ثقافتهم وهذا الشيء طبيعي في النفس، هم لم يقولوا "نريد مال قارون ولا نريد طغيانه"، بل قالوا: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، فمن الذي يمدح الشرق والغرب ولا يمدح كل شيء عندهم أيًّا كان وضعهم؟! وعندما يتكلمون عن الاستثناءات يقولونها على استحياء! مثل: "إنهم يشربون الخمر" فتجده يضعها على الهامش بحيث يجعلك لا تفكر في عيوبهم، وهم في الأصل يصورون لك حياتهم كأنها جنة فلا يصورون لك المشردين في الشوارع ولا غيرهم، فقط يصورون كأنها جنة وهي الجحيم في الأرض لو كنتم تعلمون لكن الله المستعان!

الكفار نسأل الله أن يكفينا شرهم لكن الذين نسأل الله أن يكفينا شرهم تمامًا هم الذين بين أظهرنا، منّا وينبهر وينقل شبابنا للانبهار ويقولون: "هذا لكي تفعلوا مثل فعلهم" فهل ينقص شبابنا هزيمة نفسية؟! هؤلاء الشباب يحتاجون أن يُقال لهم: "تستطيع أن تسعى

وتصل وتسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يوصلك" فالدنيا بنفسها ومالها وما فيها لا ننظر لها بقبول أو رفض، فنحن اتفقنا أن سورة القصص أتت بين سورة النمل وسورة العنكبوت وسورة النمل كان فيها ميزة: سليمان ومُلكه فقلنا "نحن لا نناقش المال نفسه" لكن كونك تنبهر بأحد عنده مال وهو على أسوء أحواله وتقول: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فهذا معناه أنك لا تفكر تفكيرًا صحيحًا، فإذا كان ينام مثل البهائم وقته مجرد تحصيل للدنيا فلا صلاة ولا قبلة ولا معرفة ولا لجوء ولا يدري من هو الله فكيف يعيش مثل هذا؟! فهذا أخسّ من البهيمة وتقول عن شخص كهذا ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؟ تقول عن شخص: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وقد وصفه الله بـ ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾[١]؟ كيف يحصل هذا الانقلاب؟! المال ليس موضوعنا فانظر لسليمان -عليه السلام- كيف تعامل معه، والمطلوب منك أن تسعى وترفع حال المسلمين وتفعل ما تستطيع ولكن لا تكن مهزومًا ومنسلخًا من المسلمين فنحن نرى أن أحسن الناس المسلمين وينقصهم كذا وكذا وليس هم أسوء الناس ولو فعلنا فيهم ما فعلنا لم يستطيعوا أن ينتقلوا أو يفعلوا...فهذه مشاعر الهزيمة النفسية الخطيرة لا تأتي إلا من ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

(١) البينة: ٦.

هناك الكثير يريدون تحسين وضع المسلمين لكنهم يخطئون خطأ فادحًا من حيث يظنون أنهم يصيبون خصوصًا عندما يعظمون لنا الشرق والغرب، والحقيقة أنهم ليسوا ذوي حظ عظيم بدليل ما سيأتي.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ التميز هنا لمن عنده علم لأنه سيميز الصواب من الخطأ، ونحن اتفقنا أن هذا سنهتم بتعليمه حتى يخرج من الأزمة التي يعيشها.

ماذا كانت نتيجة قارون بعدما قال عنه تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾؟

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾،﴿فَخَسَفْنَا﴾ الفاء للتعقيب "فالخسف" جاء مباشرة بعد خروجه في زينته؛ خسف الله به وبداره الأرض وسيخسف بكل أحد يشبهه، فما طريقة الخسف أو زمن الخسف؟ ليس هذا من شأننا، هل سأعيش لأرى الخسف بالظالمين أو لن لأعيش، هذا ليس شأني، فأنا شأني ثقة في الله أن هؤلاء لن يبقوا ولا يمكن أن يصلوا لهذه الدرجة من الفساد ويبقى حالهم كما هم، خصوصًا عندما يشرّعون الباطل فهذا ناقوس الخطر وبداية النهاية لهم، حين يشرعون الباطل واللواط والسحاق! فنحن على يقين أن الله لا يمكن

أن يترك الخبث في الأرض حتى يعمّها، فلابد أن يُخسف بهم، الوقت والصورة ليسوا من شأننا، لكننا سنلقى ربنا ونحن متيقنون سواء رأينا أو لم نرَ فلا يمكن أن يبقى الباطل يُدال على الحق دائمًا، ولكنه قد يُدال في زمن وأهله يصبحون متمكنين في زمن نعم، لكن إطلاقًا، لا، ولا نلقى الله بهذه العقيدة، بل نلقى الله بعقيدة: أن الحق لا بد أن يُدال على الباطل ويعلو عليه والباطل يذهب ولابد.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ الشيء المهم الذي لابد أن نفهمه أنه كان له أنصار كما ترى الآن أن لكل قارون أنصار فماذا حدث؟ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾.

هذه الفئة دائمًا تغرّ الإنسان حتى وهو صغير مثلًا هذا الذي أربيه: تفعل مشكلة مع معلمتها والسبب أن صديقاتها ناصروها حتى وقعت في الخطأ! وعندما تقع في الخطأ ينفك الناس! وهي لابد أن تفهم هذا الكلام، ففي الخطأ يجتمع الناس وأول ما ينكشف هذا الخطأ لا يبقى معه أحدا! الشاهد:

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ خرجوا بهذه النتائج:

- ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾.

فبسط الرزق ليس دليلًا على رضا الله أبدًا فمعناه أن وجود أموال عند الشرق والغرب ليس دليلًا على أن الله راضٍ عنهم فالله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

- ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾.

هم فهموا أن حب أهل الباطل وموالاتهم وشعور أنهم أصحاب حظ عظيم جريمة لذلك رأوا أن من رحمة الله بهم أنه لم يخسف بهم، أي: "لولا أن منّ الله علينا فما أخذنا بحبنا لما كان عليه قارون وإعجابنا به، لذهبنا مثلما ذهب".

- ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

فما أعظم هذا الدواء، هذا الدواء يوضع على كل داء انبهار، كل شخص ينبهر بالشرق أو الغرب وأهل الكفر فليعلم أن الله ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، لا يفلحهم أبدًا، وهذا الذي هم فيه ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[(١)] وترى في سورة غافر وآل عمران يتكرر هذا المعنى، فما هم فيه ليس فلاحًا، الله يقول: ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، هم اكتشفوا

(١) آل عمران: ١٩٦-١٩٧.

هذه النتيجة لما خُسف به وبداره الأرض، ولكن نحن لا ننتظر حتى نكتشف، نحن نريد أن نكون مثل ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ، يعلمون أن الله ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

هؤلاء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قالوا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ هم أدركوا أن هذا ليس بشي، أدركوا هذا قبل أن يُخسف بقارون.

والقوم الآخرين متى أدركوا؟ عندما رأوا بأعينهم لهذا قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، كنا نشكّ!

فلا يصح أن يلقى أحد الله وليس معه يقين بأن الله ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾. فهذه من أفسد العقائد، الذي هم فيه ليس فلاحًا، فالفلاح أن تطيب دنياك بذكر الله وأن تلقاه وهو راضٍ عنك ولكن ما هم فيه يقال فيه ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾. ثم قال الله -عزَّ وجلَّ- وهو الحكم العدل:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

إن أُعطيت الدنيا لأحد فهذا ليس دليلًا على الرضا، إنما الدار الآخرة التي فيها النعيم المقيم تكون للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين.

هذه ما تيسر حول القصة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته